

رسالة

روح القدس في مناصحة النفس

كتب بها الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي

من مكة حرسها الله

إلى عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي نزيل تونس ببلاد المغرب

رضي الله عنهما وغفر لهما وللمسلمين

رواية عبد الله المسعود بدر ابن عبد الله الحبشي

معتق أبي الغنائم ابن أبي الفتوح الحراني عنه

غفر الله ذنبه

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين وعليه أتوكل، وصلى الله على محمد وعلى آله.

من العبد الضعيف، الناصح الشفيق المأمور بالنصح لإخوانه والمشدّد عليه في ذلك دون أهل زمانه، محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي، وفقه الله. إلى وليّه في الله تعالى وأخيه الركن الوثيق أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي، نزيل تونس أبقاه الله محفوظا وبعين الصون الإلهي والحماية ملحوظا. سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأسلم تسليما.

أما بعد، يا أخي فإن النصح أولى ما تعامل به رفيقان وتسامر به صديقان، وقلما دامت اليوم صُحبةٌ إلا على مُداهنة. وقد ثبت أن النبي عليه السلام قال «ما ترك الحق لعمر من صديق» وقال أُويسُ القرَني لرجل من مُراد "يا أخا مراد، إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرحا، وإن علمه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضّة ولا ذهباً، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقا!" وكل إنسان يقبل النصح في غيره يلتدّ بسماع معائب النفس إذا أرسلتها في مجلسك مُطلقةً من غير تعيين، ويُقرّ لك بأن هذا هو الحق. فإذا قلتَ له "إياك عنيتُ بهذا الكلام، والمؤمنُ مرآة أخيه؛ وقد رأيت فيك ما أوجب عليّ أن أقول لك فيه" شَمِخت النفسُ وقالت "سبحان الله، إنما أنا مرآة نفسك؛ رأيتَ فيّ! ومثلي أنا من يقال له هذا؟!!" فأدّى نصْحُك له في أمر واحد إلى ارتكاب محظورات كثيرةٍ من الكذب والنِّفاق. وقلّ يا وليي أن تجد اليوم للناصح من صديق، ولقد قلنا في ذلك:

لَمْ يَتَرَكَ لِي فِي الْوُجُودِ صَدِيقًا

لَمَّا لَزِمْتُ النَّصْحَ وَالتَّحْقِيقَا

وَلَعَمْرُ اللَّهِ، ما كَذَبْتُ وما قُلْتُ إلا ما وَجَدْتُ! ويعلم وليي، أبقاه الله، أيامَ إقامتي عنده أُنِي ما عاشَرْتُه إلا بِالْمُنَاصَحةِ. حتى ذَكَرَ لي يوماً على العَشاءِ وقال لي مواجهة "إِنَّكَ كَثِيرُ الانْتِقَادِ!" واحتجَّ عليَّ بِمَسْأَلَةِ إِبْرَاهِيمَ بنِ أَدهم، ثم استشهد بقول القائل:

وعَيْنُ الرِّضا عن كل عَيْبٍ كَلِيلَةٌ	ولكنَّ عَيْنَ السَّخَطِ تُبْدي الْمَساوي
--	--

فأعَرَبْتُ له، وفَقَّهَ الله، أن ذلك مقامٌ مَن أَحَبَّكَ لنفسه وأما من أَحَبَّكَ لك فلا سبيل. ولَمَّا كان حُبُّ الله إِيَّانا لنا لا لنفسه، نَبَّهَنا على مَعايِينِنا وأَظهَرَ لنا نَقائِصَنا ودَلَّنا على مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال، وأوضح لنا مناهجها ورفع لنا معارجها. ولما أَحَبَّناهُ لأنفُسنا ولم نَتَمَكَّنْ في الحَقِيقَةِ أن نُحِبَّه له، تعالى عن ذلك، رَضِينا بما يَصْدُرُ منه مما لا يُوافِقُ أغراضنا وتَمَجُّهُ أنفُسُنا وتَكرَهُهُ طِباعُنا. والسعيد هو الذي رَضِيَ بذلك منه تعالى، وَمَن سِواهِ يَضْجَرُ وَيَسْخَطُ. فنسألُ الله العَفْوَ والعافِيَةَ في ذلك لنا وللمسلمين.

وقد فُزْتُ يا أحي، جعلني الله وإيَّاكَ من الفائزين، في زمانِكَ هذا بِخِلالِ ما لَمْ أَقدِرْ أن أراها في غيرِكَ. منها معرفتُكَ بِمَرْتَبَةِ العلم وأهلِهِ، وعدمُ تعريجِكَ على الكَرَاماتِ والأحوال، ومنها انقيادُكَ للحق وتواضُعُكَ له ونزولُكَ إليه عند مَن وجدته سواءً كان مِمَّنْ تَلَحَّظُهُ العيونُ أم لا يُؤَبِّهَ له. ولم تَلَحَظْ مِثْرَلَتَكَ الدنيويَّةَ مِن تعظيمِ الناسِ لك وتقبيْلِهِم يَدَكَ وإتيانِ السلاطينِ إلى بابِكَ؛ وهذا غاية الإنصاف، ثَبَّتَكَ اللهُ وإِيَّانا. ومنها قولُكَ فيما لا تعلم "لا أعلم" وفيما تعلم "أُحِبُّ أن أسمعَه من غيري". فقد حُزْتُ، والله يا وليي، هذه الخصالُ التي تتطايَرُ دونَها رِقابُ الرِّجالِ والمقامُ الذي لا تَغَيِّرُهُ الأحوالُ ولا تَزِيدُهُ حُسناً ووضاءةً رَوَاتِبُ الأعمالِ. ثم بَحُثْتُكَ، الذي لم أرَه في غيرِكَ، في معرفة الأَنامِ والزمانِ، واعتقادُكَ أَنه مِن فُرُوضِ الأعيانِ؛ مِن أعجب ما سَمِعْتَهُ الأَذانُ وتسامرت به الخُلانُ وسارت به الرُّكبانُ. ثم ما وهَبَكَ اللهُ مِنَ الصَّوْلَةِ والقُوَّةِ على الفُقهاءِ بدلائلِ المكارمِ والفُتُوَّةِ الجارية مع بَراهِينِ النبوَّةِ.

وأما أهل زمانك اليوم، يا وليي، فكما قال الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي رحمه الله "ضَعْفُ ظَاهِرٍ وَدَعْوَى عَرِيضَةٍ!" فَأَوَّلُ مَا وَصَلْتُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ سَأَلْتُ عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى، عَسَى أَنْ أَجِدَ مِنْهُمْ نَفْحَةَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى. فَحُمِلْتُ إِلَى جَمَاعَةٍ قَدْ جَمَعْتَهُمْ خَائِقَاءُ عَالِيَةِ الْبِنَاءِ وَاسِعَةُ الْفَنَاءِ، فَنَظَرْتُ إِلَى مَغْزَاهُمْ الْمَطْلُوبِ وَمَنْحَاهُمْ الْمَرْغُوبِ: تَنْظِيفُ مُرَقَّعَاتِهِمْ، بَلْ مُشَهَّرَاتِهِمْ، وَتَرْجِيلُ لِحَاهُمْ! غَيْرَ أَنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ أَهْلَ الْمَغْرِبِ أَهْلُ حَقِيقَةٍ لَا طَرِيقَةَ وَهُمْ أَهْلُ طَرِيقَةٍ لَا حَقِيقَةَ. وَكَفَى بِهَذَا الْكَلَامِ فَسَادًا!

إِذْ لَا وُصُولَ إِلَى حَقِيقَةٍ إِلَّا بَعْدَ تَحْصِيلِ الطَّرِيقَةِ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْمُقَدَّمُ وَالصُّدْرُ الْمُبَرِّزُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي "وَإِنَّمَا حُرِّمُوا الْوُصُولَ -وَهُوَ الْحَقِيقَةُ- بِتَضْيِيعِهِمُ الْأَصُولَ -وَهِيَ الطَّرِيقَةُ-" وَقَدْ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِفَرَاغِهِمْ مِنَ الْحَقِيقَةِ فَهِيَ شَهَادَتُهُمْ بِعَيْنِهَا أَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقَةِ. وَشَهَادَتُهُمْ لَنَا أَنَّا عَلَى الْحَقِيقَةِ شَهَادَةُ مِنْهُمْ لَنَا بِتَحْصِيلِ الطَّرِيقَةِ. وَهَاتَانِ جَهَالَتَانِ مِنْهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

فَالزَّمَانُ، يَا وَلِيِّي، الْيَوْمَ شَدِيدٌ، شَيْطَانُهُ مَرِيدٌ وَجِبَارُهُ عَنِيدٌ؛ عُلَمَاءُ سَوْءٍ يَطْلُبُونَ مَا يَأْكُلُونَ وَأَمْرَاءُ جَوْرٍ يَحْكُمُونَ. بَمَا لَا يَعْلَمُونَ وَصُوفِيَّةٌ صُوفٌ بِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا مُوسَّخُونَ وَمُؤَسَّسُونَ. عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ فَلَا يَرَوْنَ فَوْقَهَا مَطْلَبًا وَصَغُرَ الْحَقُّ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْجَلُوا عَنْهُ هَرَبًا. حَافَظُوا عَلَى السَّجَادَاتِ وَالْمُشَهَّرَاتِ وَالْعَكَازِ وَأَظْهَرُوا السَّبَبَاتِ الْمَزِينَةَ كَالْعَجَائِزِ؛ طَغَامٌ، أَطْفَالٌ، صَبِيَانُ الْأَحْلَامِ! لَا عِلْمَ لَهُمْ عَنِ الْحَرَامِ يَرَدُّعُهُمْ وَلَا زُهْدَ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا يَصُدُّهُمْ. اتَّخَذُوا ظَاهِرَ الدِّينِ شَرَكًا لِلْحُطَامِ وَلَا زَمُوا الْخَوَانِقَ وَالْأَرْبِطَةَ رَغْبَةً فِيمَا يَأْتِي إِلَيْهَا مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ. وَسَعَوْا أَرْدَانَهُمْ وَسَمَّنُوا أَبْدَانَهُمْ.

فَوَاللَّهِ، لَا أَرَاهُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَنْ سَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَيَجَاءَنَّ بِأَقْوَامٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ مِثْلُ جِبَالِ تِهَامَةَ، حَتَّى إِذَا جِيءَ بِهِمْ جَعَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ

هَبَاءٌ ثُمَّ قَذَفَهُمْ فِي النَّارِ» فَقَالَ سَالِمٌ "يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي، حُدِّ لَنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ حَتَّى نَعْرِفَهُمْ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي أَتَخَوَّفُ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ!" قَالَ «يَا سَالِمُ، أَمَا إِنَّهُمْ كَانُوا يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ وَكَانُوا يَأْخُذُونَ وَهَنًا مِنَ اللَّيْلِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَرَامِ وَتَبَّوْا عَلَيْهِ؛ فَأَدْحَضَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ أَعْمَالَهُمْ.» فَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ "هَذَا وَاللَّهِ النِّفَاقُ!"

وَاللَّهُ، يَا وَلِيِّي، لَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ يَنْقُرُونَهَا وَفِي صُفُوفِهِمْ لَا يَقِيمُونَهَا، يَجْعَلُ أَحَدُهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ فِي الصَّفِّ قَدْرًا مَا يَدْخُلُ فِيهِ أَلْفُ شَيْطَانٍ، ثُمَّ إِذَا شَتَّ أَنْ تَسَدَّ ذَلِكَ الْخَلْلَ تَرَاهُمْ قَدْ قَطَّبُوا وَجُوهَهُمْ. وَإِنْ غَفَلْتَ وَوَطِئْتَ بِرِجْلِكَ سَجَّادَةً أَحَدِهِمْ لَكَمَكَ لَكَمَةً حَيْثُ جَاءَتْ مِنْكَ وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا حَتْفُكَ! هَذِهِ وَأَشْبَاهُهَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي أَهْلُ زَمَانِكَ عَلَيْهَا. وَيَرْحِمُ اللَّهُ أَبَا الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيَّ حَيْثُ أَدْرَكَ مَنْ تَحَلَّى بِحِلْيَةِ الْقَوْمِ فِي ظَاهِرِهِ وَتَعَرَّى عَنْهُمْ فِي بَاطِنِهِ فَأَنْشَدَ فِيهِ:

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ	وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا
--	--

هَذَا الَّذِي قَدْ اشْتَرَكَ مَعَهُمْ فِي الزَّيِّ الظَّاهِرِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا خِيَامَ وَلَا نِسَاءَ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْقَوْمِ. وَإِنْ الْمَوْتُ الْأَخْضَرَ عِنْدَهُمْ طَرَحَ الرَّقَاعَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ -وَذَلِكَ شِعَارُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَقَامَ هَؤُلَاءِ فَقَالُوا "إِنَّمَا لَنَا لَبْسُ مُرَقَّعةٍ خَاصَّةٍ"، وَلَمْ يَلْحَظُوا مَا أُريدَ بِهَا، فَتَأَنَّقَوْا فِي الثِّيَابِ الْمُطَرَّحَةِ وَالْأَعْلَامِ الْمَشْهُورَةِ، وَخَاطَبُوهَا عَلَى وَزْنٍ مَعْلُومٍ وَتَرْتِيبٍ مَنظُومٍ؛ تَسَاوَى مَا لَا عَظِيمًا. وَأَفْسَدُوا عَلَيْهَا ثِيَابًا وَسَمَّوْهَا 'مُرَقَّعةً' فَرَحِمَ اللَّهُ سَيِّدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَبَا الْقَاسِمِ الْجُنَيْدَ حَيْثُ أَنْشَدَ لَمَّا رَأَى مِنْ فُسَادِ الْحَالِ:

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوْا	صَارَ التَّصَوُّفُ مَخْرَقَهُ
صَارَ التَّصَوُّفُ رَكُوءَةً	وَسَجَّادَةً وَمَزَلَقَهُ
صَارَ التَّصَوُّفُ صِيحَةً	وَتَوَاجُدًا وَمَطْبَقَهُ
كَذَبْتَكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ذِي	سَنَنِ الطَّرِيقِ الْمُلْحَقَهُ

والله ما أعلم أهل الطريق هكذا! وما كان الطريق إلا بالتعود في مَرايض الكلاب مُجاهدة، وتَحْمِلُ الأذى وكَفَهَ رياضةً، والرحمةُ والشفقةُ والعطفُ على الفقراء والمساكين والمسلمين كافةً تَحْقِيقاً ومعرفةً. أين هم من صِفةِ أهل الله كما نَعْتَهُم شيخُ الطائفةِ العاليةِ رضي الله عنهم، قال عبد الباري: قلت لذي النون المصري رحمه الله "صِفْ لي الأبدال!" قال "أَأَتُكَ تَسْأَلُنِي عن دِياجِي الظُّلَمِ لِأَكْشِفَ لَكَ عنها، يا عبد الباري؟ هم قومٌ ذَكَرُوا اللهَ بقلوبهم تعظيماً لرَبِّهم لِمَعْرِفَتِهِمْ بِجَلَالِهِ، فهم حُجَجُ الله تعالى على خلقه. أَلْبَسَهُم النورَ الساطِعَ مِن مَحَبَّتِهِ ورفعَ لهم أعلامَ الهدايةِ إلى مُواصلتهِ، أَقامَهُم مقامَ الأبطالِ لإرادتهِ وأَفْرَغَ عليهم الصَّبْرَ عن مُخالَفَتِهِ وطَهَّرَ أبدانَهُم بِمُراقَبَتِهِ وطَيَّبَهُم بِطِيبِ أَهلِ مُعاملتِهِ وكَسَاهُم حُلُلًا مِن نَسِجِ مَوَدَّتِهِ وَوَضَعَ على رؤوسِهِم تيجانَ مَسَرَّتِهِ. ثم أَوْدَعَ القلوبَ مِن ذخائرِ الغيوبِ، فهي مَعْلَقَةٌ بِمُواصلتهِ. فَهَمُّهُمْ إِلَيْهِ سائِرَةٌ وَأَعْيُنُهُم بِالْغَيْبِ إِلَيْهِ ناظِرَةٌ، قد أَقامَهُم على بابِ النظرِ مِن قُربِهِ وأَجْلَسَهُم على كراسِي أَطباءِ أَهلِ مَعْرِفَتِهِ، ثم قال عز وجل لهم «إِنْ أَتَاكُمْ عَليْلٌ مِن فَقْدِي فَذَاوُوهُ أَوْ مَرِيضٌ مِن فَرْقِي فَعَالَجُوهُ أَوْ خَائِفٌ مِنِّي فَأَمِّنُوهُ أَوْ آمِنِ مِنِّي فَحَذَرُوهُ أَوْ رَاغِبٌ فِي مُواصلَتِي فَمُتُّوهُ أَوْ رَاغِلٌ نَحْوِي فَرَوِّدُوهُ أَوْ جَبَانٌ فِي مُتاجَرَتِي فَشَجِّعُوهُ أَوْ آيسٌ مِن فَضْلِي فَعَدُّوهُ أَوْ رَاجٍ لِإِحْسَانِي فَبَشِّرُوهُ أَوْ حَسَنُ الظَّنِّ بِي فَبَاسِطُوهُ أَوْ مُحِبٌّ لِي فَوَاطِئُوهُ أَوْ مُعَظَّمٌ لِقُدْرِي فَعَظِّمُوهُ أَوْ مُسِيءٌ بَعْدَ إِحْسَانٍ فَعَاتِبُوهُ أَوْ مُسْتَرَشِدٌ نَحْوِي فَأَرشِدُوهُ...» إلى آخرِ تمامِ القصةِ على ما ذَكَرناها في كتابِ 'البغية' مستوفاةً.

فهذه أحوال العارفين، يا وليي، وهكذا تكون عِمارةُ القلوبِ. وأما أَهلُ زمانِكَ فوالله لو اطلعتَ عليهم، كما اطلعتُ على جُمْلَتِهِم ظاهِرِهِم وباطنِهِم، لرَأَيْتَ إِنْ نظرتَ إلى وجوهِهِم عيوناً جامدةً متحرِّكةً غيرَ هادمةٍ، وَإِنْ نظرتَ إلى نفوسِهِم رأيتَ نفوساً سائمةً وَإِنْ نظرتَ إلى قلوبِهِم رأيتَ قلوباً لاهيةً من العِمارةِ العُلويةِ القُدسيةِ خاليةً على عروشها خاويةً. آجاماً لأَسود ضاريةً ومَرايضَ لذئابِ عاويةٍ؛ فسل الله عن

رؤيتهم العافية! أين هم يا وليي من قوم وصفهم أبو الفيض رحمه الله تعالى حيث قال "إن لله لصفوة من خلقه وإن لله لخيرة! قيل له "يا أبا الفيض ما علامتهم؟" قال "إذا خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة وأحب سقوط الميزة!" ثم قال:

منع القرآن بوعده ووعيده مُقِلَّ العيون بليها أن تهجع
فهموا عن الملك الكريم كلامه فهما تذلل له الرقاب وتخضع

فقال له بعض من كان في مجلسه "من هؤلاء القوم، يا أبا الفيض، رحمك الله؟" قال "ويحك، هؤلاء قوم جعلوا الركب لجباهم وسادا والتراب لجنوبهم مهادا، هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الأزواج وحركهم بالإدلاج؛ فوضعوه على أفئدتهم فانسرحت وضمموه إلى صدورهم فانشرحت وتصدعت هممتهم به فكدحت، جعلوه لظلمتهم سراجا ولسبيله منهاجا ولحجَّتهم إفلاجا. يفرح الناس وهم يحزنون وينام الناس ويسهرون ويُفطر الناس ويصومون ويأمن الناس ويخافون؛ فهم خائفون حذرون وجلون مُشفقون مُشمرون، يُبادرون من الفوت ويستعدون للموت..." إلى آخر ما قاله أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري، وهو كما علمت يا وليي من ساداتنا. فهذا وصفه لأولياء الله وبهذا حلاهم وهكذا شاهدتهم وراهم.

ولقد لقيت بهذه البلاد من يلبس سراويل الفتیان ولا يستحيي في ذلك من الرحمن، لا يعرف شروط السنن والفرائض، ولا يصلح أن يكون خديما في المراحض! ومع هذا يا وليي فهم والله الصدق الذي يخفي ربيع الدرر والسياح على الروضة البانعة ذات الزهر؛ يدخل بينهم الصادق والصديق فيجهل، والعارف المتمكن فيترك ويهمل. فإنه يحمل ما هم عليه لاشتراكهم في المسكن، وما بينه وبينهم معاملة في شيء! ولقد وقع بيدي منهم بمصر في الخانقاه بالقاهرة كهل يقرب أن يكون رجلا لا بأس به، ففرحت به لما لم أجد غيره.

واحتجعت مع شيخ يُدعى فيهم 'شيخ الشيوخ بإربل' هكذا قال لي بنفسه، ورأيتَه يعطي النصف من نفسه للمتكلّم معه، رضي الله عنه؛ فزعم أن ليس في العرب من يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرّفه. فأراد وليّك أن لا يُشافِهه بخطاب ولا يتعرّض إليه، ثم رأيت ذلك قاصمة الظهر وقارعة الدهر، فأبدينا له يسيرا مما وهبك الله من الأسرار، ثم أعقبناه ببعض أحوال سيّدنا أبي مدين خلاصة الأبرار، فبقي مبهوتا بما سمع وقال "ما تخيلت أن يكون مثل هذا في بلاد المغرب!" ثم ألقى عليه بعض أصحابنا مسألة في الحقائق الإلهية المتوجّهة على إيجاد جهنّم، فوالله ما زاد على أن قال "لا أدري شيئا!" وأنصف من نفسه واعترف بنقصه، وهذأت شقاشقه وطفئت بوارقه، فقلت له "هذا حالك معي وأنا أنقص حظّا وأحقّر قدرا من أن أذكر فيهم أو أنسب إليهم؛ فكيف بك لو لاحظت الكبراء والسادة النبلاء الكائنين بالمغرب: الغرباء؟!" فسلم واستسلم وحمدت الله على ما ألهم وعلم.

وأما أهل السّماع والوجد في هذه البلاد فقد ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ لا تسمع إلا من يقول لك "رأيت الحقّ" وقال لي وفعل وصنع" ثم تُطالبه بحقيقة يمنحها أو سرّ استفاده في شطّحه فلا تجد إلا لذة نفسانيّة وشهوة شيطانيّة، يصرّخ على لسانه الشيطان فيصعق، ما دام ذلك المغرور الآخر بشعره ينهق؛ فلا أشبههم إلا براعي غنم ينعق بغنمه: فتقبل وتُدبر لنعيقه، لا تدري فيماذا ولا لماذا. فواجب على كل مُحقق في هذا الزمان، ممّن يُنظر ويقتدي به المُريد الضعيف أن لا يقول بالسماع أصلا ويقطعه قولاً فصلاً.

وقد أوضحنا مقامه لأهل هذه البلاد وما يتطرّق إليه من الفساد، واحتجوا علينا بأحوال من سمع من الشيوخ في 'الرسالة' وغيرها. فأوضحنا مُبهمها وأعرَبنا مُعجمها، فأقروا بنقصه في مراتب الوجود؛ فمنهم من عدل عنه ومنهم من أقام فيه على معرفته بنقصه.

وليعلم وليي، وفقه الله تعالى، أي لَمَّا قرأتُ بالحرَمِ المَكِّيِّ على الناس ما ذكرته لك في حق المُنتسبين إلى الصوفية وذمَّ أحوالهم، ثَقُلَ ذلك على شخص فقال "ما دَعاه إلى هذا؟ والإِعراضُ عن هذا كان أحسنَ" وما أشبه هذا الكلام، فزاد عندي اعتراضه تقويةً أن هذا هو الحق لكونه ثَقُلَ عليه. ولقد عميَ هذا القائل عن الأصول التي استندتُ إليها في فعلي هذا، هو يُسَلِّمها وقد قرعتَ سَمْعَه غيرَ مرة، ولم يَعْتَبِ عليهم بل استحسَنَ ذلك. فلما وقع ذلك الذمُّ في أهل زمانه رأى ذلك فُضولاً لكونه في ذلك الزمان، فخاف أن يتطرَّق إليه الذمُّ في نفسه فحزن، ولو أنصَفَ لبحثَ عن نفسه. وأما الأصول التي استندت إليها في ذلك فكثيرة جداً؛ رُوينا بالسند الكامل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه يومَ فتح مكة في القرن الفاضل لَمَّا فُقدَ عقد من عنق بعض أهله تأوَّه وقال "ارتفعت الأمانة اليوم من بين الناس!" وحكَمَ بتلك النازلة الواحدة على الزمان. والأصل الآخر بنته عائشة رضي الله عنها لما نظرت إلى زمانها وأهله وما هم فيه من البُخل والمَدام تأوَّهت وقالت "يرحم الله لبيدا حيث يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

ثم قالت "كيف به لو أدرك زماننا؟!" فذمت زمانها وأهله. وعن القُشَيْرِيِّ قال في رسالته يذم أهل زمانه -وقد سمعها هذا المعترضُ عليّ واستحسن ذلك منه- ثم قال "لَم يبقَ في زماننا من أهل هذه الطائفة إلا أثرهم:

أما الخِيَامُ فَإِنَّهَا كخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

حصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة!" وذمهم بأشد الذم في أول 'الرسالة'، ولتداولها بين الناس أَضْرَبْنَا عن حكاية قوله.

ورُوينا بالسند المُتَّصِل عن أبي حامد وغيره عن أبي المغيث في كتاب 'أنيس المنقطعين' له من حديث ابن المُهَلَّب قال: مررتُ بالساحل فرأيت شاباً قد احتفرَ لنفسه حُفْرَةً في الرمل، فسألته فتأوَّه ثم قال يذمُّ أهل زمانه "توعَّرت السُّبُلَ وقلَّ السالكون لها؛ قد افترشوا الرُّخَصَ وتمهَّدوا الزَّلَلَ واعتلُّوا بزلل الماضين!" إلى مثل هذا

الكلام ثم قام فمشى على الماء حتى غاب عني. أرايت قط مثل هذا يتفق لمن تكلم فيما لا يعنيه؟! وروينا بالسند الكامل عن أبي صالح قال: لما قدم أهل اليمن زمان أبي بكر وسَمِعُوا القرآن جعلوا يبكون، فقال أبو بكر "هكذا كنّا ثم قست القلوب!"

وثبت أيضا تقريرُ النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه المعذّبين بمكة على إسلامهم، ومنهم خباب وقاسي بلاءً شديدا من أجل إسلامه، قال رضي الله عنه: شكّونا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقاه من البلاء وقلنا "ألا تدعو الله لنا ألا تستنصر لنا؟" فجلس مُحمّراً وجهه ثم قال «والله، إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيوضع المنشار على رأسه فيُشقُّ باثنتين، ما يصرفه عن دينه شيء! ويمشّط بأمشاط الحديد ما بين عصب ولحم، ما يصرفه عن دينه شيء!» فيا أيها المعترض، هذه الأصول التي استندت إليها في ذم أهل وقتي، لا حشرتني الله معهم ولا أمتاني على حالتهم! هلا كنت ناصري في قولي هذا وتعرف أنه الحق وأن اليوم الحال على ما وصفناه وكنت تأتيني باكيا على نفسك وأنا أيضا كذلك عسى الله يرحمنا؟! أرضيت لنفسك أن تكون مُنافقا مدهانا وللمُدهنين إماما؟! لا والله، ما أرضى بهذه الحالة لمسلم؛ فتب إلى الله وارجع إليه تعالى، فإنه يرجع إليك، وتعال نُقم مآثما ومناحة على التقصير في العمر اليسير وعلى الاشتغال بالثُرّهات والفرح بالخزّعبلات، بل أضلّ الأباطيل!

ونقول: والله، إنه كلّ من ثقل عليه هذا الكلام فهو بتلك الصفة التي وصفنا! ولهذا قلّق، ولو كان بريئا منها سكّن كما سكن عند ذكرنا ذمّ السُّراق والقطّاع وأشباههم، ولما كان له في هؤلاء مدخل فرّ إلى الاعتراض، ليزداد من الله بُعدا في ردّه الحق. وليس اعتراضه علينا في هذا بأول دمع جرى على طلل، فإنه لم يزل أبدا كلّ من يتكلّم في معاييب النفس وأحوالها، ويؤدي نقائصها ويدّم شأنها -على التعيين وعلى غير التعيين، في كل زمان- مذموما في زمانه، لعدم موافقته أغراض النفوس.

فإذا انقَرَضَ زَمَانُهُ ومات، ونشأت طائفةٌ أخرى بعده، عند ذلك يُعرف قدرُ ما جاء به ويقال: قال فلان رضي الله عنه "هكذا كان الناس!"

ثم أعرّف وليي أبقاه الله تعالى، بما طرأ بيني وبين نفسي. رأيت نفسي في هذه البلاد مسجونةً مَقْهُورَةً، فأني كما يعلمه وليي مِمَّنْ يقول بوجودها ولا يصحّ عندي أبداً موئها عن صفاتها، لِمَعْرِفَتِي بِحَقَائِقِهَا ومكانها. ولما رأيت الله تعالى قد فتح إلى قلبي بابَ الحكمة وأجرى فيه بحارها، وسبح سِرِّي في لُجَّةٍ تَبْجِها حتى أُنِي واللهِ لَأَنْظُرَ إلى مُعْظَمِ البحر إذا اشتدّت عليه الرياح الزعازع فعلاً موجّه وارتفع دَوِيُّه. ثم أنظر إلى تَمُوجِ بحرِ المَعَارِفِ والأسرار في صَدْرِي فأجد مُعْظَمَ ذلك البحر، بما وصفناه من تلاطم الأمواج واشتداد الرياح، ساكناً لا حَرَكَ به عند تَمُوجِ بحر الحكم في صَدْرِي واصطفاه، لاسيما في مكة.

فداخلني من ذلك رُعبٌ شديد وجزعٌ عظيم وخوفٌ متلف، فعزمت على قطع الميعاد وأن لا أقعد للناس. فأمرت بالقعود والتّصيحة للخلق قَسْراً وحتماً واجبا؛ فقعدت رفيعَ الكلام مُصَلَّتَ الحُسام. ثم أخلو بنفسي حيثُ مسكني، فأزِن المواهب بالحال التي أنا عليها وفيها، فلا أجد بينهما نسباً يربط ولا سبباً يضبط. فخفتُ، والله يا وليي، مكرَ الله بي واستدراجَه إياي. فخلوت بنفسي وقد داخلني من ذلك ما لا يعلمه إلا الله، ولا أجد طريقاً أدخل منه لَتَمَحْيِصِ نفسي، وقد انسَدَّتْ عليّ المسالك بفنون الحقائق الأول والمعارف، إلى أن لطف الله بي برؤيا رأيتها وجدتُ بها الظفر على نفسي وإقامة الوزن عليها.

وذلك أُنِي رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة، فلما حصّلت الباب ورائي ولم أكن رأيتُ ناراً ولا حَشْراً ولا حساباً ولا شيئاً من أهوال القيامة، وجدت في نفسي راحة عظيمة لا يُقدَّر قدرُها وسُرورها، وحمدت الله كما ورد في القرآن عنهم. فلما استيقظت علمت أن في حالي بعضَ اعتلال، وأن نفسي ادّعت فوقَ حالها من جهة ما أعطاه الله من العلم، ولو كانت متحققة بالحق تَحَقُّقاً عقلياً مقدّساً إلهياً يُفنيها

عنها، لم تلتذّ بدخول الجنة ولا عقلت الراحةَ ولشغلها التَّنَزُّه في جلال الله عن النظر إلى راحتها والتفاتِها إلى نجاحها من أهوال الوعيد.

فأرادت أن تقيم عليّ الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الإنسانية ومراتبها فلم أسمع لها، وقامت حُجَّتِي عليها وأذنتها بقصورها وعظيم دعواها في شيء هي دونه، وحمدتُ الله الذي أظفرتني بها. فقلت لها: يا نفسُ، وعِزَّة مَنْ جَبَلَكَ على المخالفة وجعلك محلاً لكل وصف مذموم؛ لا أتركك على دُعَاكِ حتى أعرض أحوالك كلها على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن وافقت ذلك ولم أجد منك خللاً سلّمتُ لك فيما أردت أن تُقيمي علي من سلطانك، والله يقول ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقال ابن مسعود: كُنْ أَنْتِ المَحْدَثُ إِذَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وإن وجدتكِ دون ذلك وقامت الحجة عليك فأنا الطُف بكِ وأرحمك بأن أمشي بكِ على أحوال أهل الصِّفَّة، الذين تنتسبون إليهم، وعلى أحوال الصِّفوة من أعلام الصحابة فيهم. فإن خرجتِ مع واحد منهم في حالٍ ما فأنا أنزلك معه وأرضى عنك، وإن لم أجدكِ مَشِيَتُ بكِ على تابعيهم على نحو ما فعلتُ بكِ مع الصحابة. فإن قصرتِ عن أحوالهم مشيت بكِ على تابعي تابعيهم وتابعي تابعيهم، فإذا أن تقفِي مع واحد منهم وإما أن تقصُري عن شأوهم فالنار أولى بكِ، وأجعل حكمتك ومعرفتك كدرهم زائفٍ عند صيرفيِّ ناقِد!

فقلت لي، وقالت بعضُ حقّ: أما النبي عليه السلام فلا أعرض حالي على حاله أدباً معه، فإنّ فلَك النبوة ليس لنا فيه قَدَم. ولا تقوم لك به عليّ حُجَّة، فإنه البحرُ الذي يغترف منه الخاصُّ والعامّ. فإن شددت عليّ به رخصتُ أنا على نفسي به، وتعارض الحججُ - وكلُّ سُنّة - وأنا أسقط لك الدعوى من أوّل وهلةٍ وأهجمُ على الرُّخص وأتخذها سُنّةً كما وردت، وأقنع بالنجاة من النار خاصةً وأحرّمك التَّنَزُّه في المنازل العُلا، فيما بقي من عُمرِكَ. وكذلك القرآن فإنه البحر الأعظم الذي لا يُدرَك

قعره، إذ ليس له قعر فيدرك ولا ساحل فيبلغ، بل فيه هلك الهالكون ونجا المفلحون قال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ تالله، لو عرضت الملائكة والنبيون والمرسلون أحوالهم على آية من القرآن، على حد ما يعلمه الله من أسرار ما أودع فيها من الغيوب، لبقى الكل إلى جانبها كلا شيء عندها! لقد قيل في أول آية منه وهي قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يتيه العالم أسفله وأعلاه لا يعرف طريقه أبدا، ولا يفي أحد بحقيقتها؛ فإن في الغيب أموراً لو بدا منها لمحة بارق لأعلى عالم مشاهدة من العالم وأقواه إيماناً لتردد فيها وأنهم إيمانه. إهم جهلوا الأسماء، فما ظنك بما تنطوي عليه المسميات من المعاني؟! وذلك لعلو الأمر عن مراتب العقول وانفراد الحق بالخلق والإيجاد دون الخلق، ولهذا قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟! ولما لم يكن لنا خلق لم يكن لنا علم. فما أعطانا فمئة منه وعلمه لا يتناهى، فليس بإنصاف منك أن تعرض حالي على كتاب الله الأقوى الأقهر!

ولكن حسبك من دون القرآن والنبوة من المؤمنين، فخذ معي في مراتب الولاية وأنا المنقادة السميعة، السهلة المطيعة؛ أرجع معك عليّ باللائمة إن قصرت وأنصفك من نفسي إن أحصرت. ولا نبقي في محلّ العنّ والخسران؛ فإتاك أنا كما أنا أنت، فلست غيري ولست غيرك، وما لك عليّ حجة وقد أعطيت يد القياد في التمحيص والاختبار!

فتعجبت والله من نفس تنقاد لهذا المقدار؛ فبلوت كلامها وما جاءت به، فوجدتها قد انطوت على مكر وخداع وأمر هائل لا يُستطاع. وقد شابت الأري بالشري وأبطنت الحرب في السلم، فتعاميت عنها في ذلك وعملت كأني لم أشعر بخداعها المهلك. وحررت نفسي معها في المناظرة ولم أنتق لها من أحوالهم إلا ما لم يخطر لها على بال ولا أنصفت به في حال، وعدلت عن كل حال رأيت لها فيه بعض اشتراك. ولو علمت أني أجد ولياً من أولياء الله تعالى لم يمتز عنها بحال البتة لم

أناظرها بأحوالهم ولا أخذت في مُناقضتها ابتداءً في سهولة انقيادها وإظهار نصيحتها.
فتركها بتعرضها لمعرفتي بنقصها وأنها تعجز عن ذلك.
انتهى الجزء الأول

فقلت لها: هات، أخرجي أسنى ما تدعينه وأعلى ما تحفظينه وتعينه، وأنا أعرض عليك أولاً حال أهل الصفة وما كانوا عليه مجملاً من غير تفصيلهم بأسمائهم، رغبة في التخلص في أسرع حال. فقالت: قل!

قلت لها: عن أبي هريرة قال: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من هو أسفل من ذلك؛ فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدؤ عورته. قال بعض علمائنا: والله ما اجتمع لهم ثوبان ولا حضر لهم من الأطعمة لونان.

ناشدتك الله يا نفس، هل كنت قط أفقر منك الآن في حرم الله تعالى؟ فقالت: لا. فقلت لها: الحمد لله، ترين لك قميصاً وإزاراً وسراويل وجبة وعمامة ونعلاً وبردة، وخبزاً نقياً ولحماً طرياً وحلواء، ويخدمك الرؤساء ويمثل أمرك؛ تقولين "افعل" فيفعل، تقولين "لا تفعل" فلا يفعل. أين أنت منهم؟

ماتوا والله بحوائجهم في صدورهم، لم يستطيعوا لها قضاء. على ما رويناه عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيهم «فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره؛ يموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء!» أخبر بهذا عن الله عنهم. بالله يا نفس، حصلت في هذا المقام؟ قالت: لا والله. قلت لها: فلست منهم، استحيي من الله وارجعي على عقبك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء! فقالت: عليّ بغيرهم، فليس لي هنا قدم.

قلت لها: فهذا عمار بن ياسر، رويناه بالسند المتصل أنه قال وهو يسير على شط الفرات "اللهم لو أعلم أن الأرضى لك عني أن أتردى فأسقط؛ فعلت، ولو علمت أن الأرضى لك عني أن ألقى نفسي في هذا الماء فأغرق فيه؛ فعلت!" ناشدتك

الله يا نفس، هل خطر لك هذا قط في رضى الله، لا تبغين به بدلا؟ قالت: لا والله، فانتقل بي عن هذا.

قلت لها: نعم هذا عبد الله بن مسعود، رويناه بالسند المتصل إليه أنه قال "ألا حبذا المَكْرُوهان: الموت والفقر! وأيم الله، إن هو إلا الغنى والفقر، وما أبالي بأيهما ابتليت؛ إن كان الغنى إن فيه للعطف وإن كان الفقر إن فيه للصبر!" ناشدتك الله يا نفس، هل عاملت الله قط من عمرك بمعاملة أثمرت لك أن تقطعي على الله بمثل هذا وتأمني من الفتنة في الغنى والكفر في الفقر؟ قالت: النصف، أما القطع فلا؛ انتقل بي عن هذا فقد أربى عليّ.

قلت لها: نعم هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رويناه بالسند المتصل إلى جابر عن عمر بن الخطاب، وذكر بدء إسلامه، وفيه: لما أسلم قال له النبي صلى الله عليه وسلم «يا عمر، أستره» فقال رضي الله عنه "والذي بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك!" ناشدتك الله يا نفس، هل قمت لي قط في دين الله حامية عنه بأمر معروف تعيين عليك أو نهى عن منكرك، في موطن دونه السيوف الحداد وعدم الناصر، يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه؟ قالت: لا والله، وإنما قاربت هذا المقام ولكن بسياسة وطنت بها نفوس الأعداء، بحيث أنه غلب على ظني الأمن والعافية في دمي. قلت لها: فارجعي! قالت: نعم، هات غيره.

قلت لها: هذا أبو عبد الله ثوبان مولى نبي الله صلى الله عليه وسلم، سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول «من يتقبل لي واحدة، تُقبِلَ له الجنة؟» قال "أنا يا رسول الله" قال «لا تسأل أحدا شيئا» فكان رضي الله عنه ربما سقط السوط من يده وهو على بغيره فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه حتى يتزل إليه ويأخذه. ناشدتك الله يا نفس، هل أقدمت في مخاطباتك هذا الإقدام على أمر مجهول، ثم لو أقدمت عليه هل كنت تفين به هذا الوفاء ولا تجنحي إلى تأويل فيه، لحصولك في مقام أنت فيه بحكم

التخيير، فترجّحين الوفاء بدعواك؟ قالت: كل ذلك لم يكن مني. قلت لها: فلا مع الأحرار أنت ولا مع الموالي! فصعّرت وقالت: انتقل بي عن هذا.

قلت: نعم هذا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، رُوينا بالسند الكامل من حديث أحمد عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان كان يُطعم الناس طعامَ الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخبزَ والزيت. ناشدتك الله يا نفس، هل فعلت هذا مع أصحابك قط؛ آثرتهم باللطيف واستأثرت بالخشن؟ فقالت: لا والله، بل كنت على أحد وجهين معهم؛ إن لم يكن لي طعامٌ غير ما جعلتُ بين أيديهم شاركتهُم فيه، وإن كان عندي أرقُّ منه أكلتُ وحدي ذلك، مثل الحلواء والخشكُنان وغير ذلك، وأقول: هو أطفُفُ غذاءٍ وأليقُ بي! وألبس على نفسي بهذه الترهات حتى لا تتنصّص به عند أكله. وأقول: هؤلاء الإخوان هم في مقام التربية، فينبغي أن لا أزرع حبَّ الشهوات في قلوبهم بإطعامي إياهم مثل هذا؛ ومقامي لا يؤثر فيه مثل هذا الطعام، فلا بأس بتناولِي إياه! فأكله على هذا الحال وقد عميت عن مُطالبَةِ الحقِّ لي في مُوازنة المعاشرة، وأدناها أن أشاركهم في خُشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق. ولا شك أن عثمان ما فعل هذا في بدايته فتجد عنه مندوحة، وإنما فعل هذا بعد التمليك. قلتُ لها: بارك الله فيك يا نفسُ إذ أنصفتني! قالت: الحقُّ أحقُّ أن يُتبع، هاتِ غيره.

قلت لها: نعم هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بابُ مدينة العلم النبوي وصاحبُ الأسرار وإمامها الذي تدعّينه يا نفس، رُوينا بالسند المتصل من حديث ضرار بن ضَمْرَةَ الكِنَاني قال: أشهد بالله، لقد رأيت عليًّا في بعض مواقفه وقد أرحى الليلُ سُدولَه وغارت نُجومُه يتميلُ في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تملُّلاً السليم ويكي بُكاءَ الحزين، فكأنني أسمعُه الآن وهو يقول "يا ربَّنَا، يا ربَّنَا!" يتضرَّع إليه، ثم يقول للدنيا "أبي تغرَّرت، أليّ تشوّفت؟ هيهات هيهات، غُرِّي غيري؛ قد بَتُّتُك ثلاثاً! فعمرُك قصير ومجلسُك حقير وخطرك كثير؛ آه آه من قلة الزاد وبُعد السفرِ ووحشة الطريق!"

ورؤينا بالسند الكامل من حديث نوفٍ البكالي قال: رأيت عليَّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، خرَّج فنظر إلى النجوم فقال "يا نَوْفُ أَرَأَيْدُ أَنْتَ أُمُّ رَامِقٍ؟" قلت "بل رَامِقٌ يا أمير المؤمنين" فقال "يا نوف، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاعِبِينَ فِي الْآخِرَةِ؛ أَوْلَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بَسَاطًا وَثَرَابَهَا فِرَاشًا وَمَاءَهَا طِيبًا وَالدُّعَاءَ وَالْقُرْآنَ دِثَارًا وَشِعَارًا. رَفَضُوا الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ." يا بُحُورًا تَحْتَوِي عَلَيْهَا هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الرَّائِقَةُ الْبَلِغَةُ، لَيْسَ لَهَا سِوَا حِلٍّ! نَاشِدْتُكَ اللَّهُ يَا نَفْسُ، هَذَا عَلِيٌّ عَلَى تَمَكُّنِهِ فِيمَا تَدَّعِيْنَهُ مِنَ الْمَقَامِ وَالْحَالِ، قَدْ عَلِمَ الْمَقَامَ وَعَمِلَهُ وَأَحْكَمَهُ. وَوَفَّى الْحَقَائِقَ حَقَّهَا عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَلَمْ يَجْنَحْ إِلَى تَلْوِيحٍ مِنْ تَلْوِيحَاتِ الْأَحْوَالِ كَمَا فَعَلْتَ أَنْتِ وَأَكْثَرُ الْعَارِفِينَ فِي زَمَانِكَ، الَّذِينَ انْبَسَطُوا بَعْدَ قَبْضِهِمْ وَأَنْسَوْا بَعْدَ هَيْبَتِهِمْ وَجَمَعُوا مَا قَدْ كَانُوا رَمَوْا بِهِ؛ فَرَجَعُوا فَرُجِعَ عَنْهُمْ، وَتَخَيَّلُوا أَهْمٌ فِي الْحَاصِلِ وَهُمْ فِي الْفَائِتِ.

أُنْظُرِي يَا نَفْسُ إِلَى تَمَكُّنِهِ فِي الْمَعَارِفِ وَتَبَرُّزِهِ فِي صُدُورِ الْمَوَاقِفِ وَضَرْبِهِ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ فَيَقُولُ "إِنْ هَاهُنَا لَعُلُومًا جَمَّةٌ، لَوْ وَجَدْتُ لَهَا حَمَلَةً!" وَهَذَا عَمَلُهُ فِي خَلُوتِهِ يُخَاطِبُ دُنْيَاهُ بِلِسَانِ مَوْلَاهُ، تَوْحِيدًا مُكْمَلًا وَتَمْيِيزًا مُحَقَّقًا. لَمْ يَخْلُطْ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَلَا دَاخَلَ الرِّقَاقَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ؛ أَحْكَمَ الْحَالَ وَالْمَقَامَ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ مُقَامٍ. فَعَامَلَهَا مُعَامَلَةَ الرَّاحِلِ، فَعَمِلَ الْحَكِيمُ الْحَازِمَ، لَمْ تَحْجُبْهُ مُخَاطَبَتُهُ لَدُنْيَاهُ بِلِسَانِ الْمَهْجَرِ وَالْقَلْبَى وَتَحَسُّرُهُ عَلَى قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ الطَّرِيقِ وَذِكْرُهُ الْوَحْشَةَ بَعْدَ تَحْصِيلِ الْأُنْسِ وَتَغْيِيطُهُ الدَّارِجِينَ عَلَى مِنْهَاجِ مَنْ وَجَدَ مِنْ غَيْرِ شَهْوَةٍ، فَلَمْ يَلْقَ بِقَلْبِهِ كَوْنٌ وَلَمْ يَحِنْ إِلَى عَيْنٍ؛ لَمْ يَحْجُبْ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنْ تَحَقُّقِهِ فِي الْمُشَاهَدَةِ، بَلْ ذَلِكَ تَمَكُّنٌ عَلَى تَمَكُّنٍ حَيْثُ أُعْطِيَ الْمَوْطِنَ حَقَّهُ وَأَنْصَفَ رَبَّهُ وَنَفْسَهُ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ. فَبَقِيَ حُرًّا فِي وَقْتِهِ لَمَّا أُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فِي نَفْسِهِ.

أَنْشُدُكَ اللَّهُ يَا نَفْسُ، عَلَى مَعْرِفَتِكَ الْقَاصِيَةِ وَمُشَاهَدَتِكَ الدَّانِيَةِ، هَلِ صَاحِبَتِ هَذَا الْحَالَ اسْتَصْحَابَ هَذَا الْإِمَامِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِنَّمَا هِيَ بَوَارِقُ تَلَمَعٍ وَأَهْلَةٌ تَطْلُعُ فِي أَوْقَاتٍ دُونَ أَوْقَاتٍ وَالْغَالِبُ الشَّتَاتِ، بَلْ نَدَّعِي وَمَنْ رَأَيْتُ مِنَ الْمَشِيخَةِ التَّصَرُّفَ

فيها والأخذ من طيباتها من جهة حقائق الإيجاد السببي والاستخلاف الذي صح لي؛ وهو نقص في الحكمة حيث لم أكن مثل عليّ بحكم الوطن. والله ما لي شبهة إلا بمن غاط في المسجد وصلى في المرحاض! وهكذا كل من وسّع على نفسه في الدنيا، من عال ودون؛ فالكُل والله تافه وفي بيداء العماية تائه!

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾! لولا أنّي أريد أن أقف على أحوال هؤلاء السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة، فقد رماني والله هذا الإمام بدهية ما أرى لها ناهية وقاصمة ما أرى لها عاصمة! وقد أسلمت لبرهان العلم واستسلمت لسلطان الحكم؛ ومن مثل علي وهذا مقامه، ومن يُعادلُه وهذا كلامه؟! لو لم تُنبّه لغفلتنا عن شرف منزلته إلا بسكوت الحصى في كفّه لكان ذلك تنبيها لكل قلب فطن نبيه؛ فيا سوء ما كنت فيه! جزاك الله عني خيرا؛ زدني، زادك الله حكمة وإيمانا وحفظا وبيانا.

قلت لها: نعم هذا الذي بُشّرت غير مرّة أنّك في مقامه وحامل ألويته وأعلامه، أبو بكر الصديق رضي الله عنه. رُوينا من حديث أبي بكر بن خلد بسنده عن ابن عباس أن أبا بكر رضي الله عنه خرج حين تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر يُكلّم الناس، فقال "اجلس يا عمر!" فأبى عمر أن يجلس فقال "اجلس يا عمر!" فتشهد وقال "أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً، صلى الله عليه وسلم؛ فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله، عز وجل؛ فإن الله حي لا يموت! وإن الله قال ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ؛ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟! وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ؛ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً! وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾" فسكن جأشهم بالقرآن، وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن.

ناشدتك الله يا نفس، هل حصلت بالسّر الذي تدّعين أنه قد حصل لك من الحق، حالا ومقاما من تعظيم الله، ما علمت به تعظيم من عظمه الله من جهة تعظيم الله إياه، ثم وفّيته حقه في ذلك بـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ من غير أن تُسقطني،

باستيلاء سلطان عظمة الله، من قلبك عظمة خير العالمين إلى من دونه من أهل التعظيم، مقاما مستصحبًا؟

قالت: لا والله يا وليي، إنما أنا بين فناء وبقاء وتلاش وانتعاش وإقبال وإدبار ووصول ورُجوع. وما كنتُ فهِمْتُ قطُّ هذا من هذا الكلام الذي خرَجَ من فَمِ الصديق حتى نَبَّهتني عليه، ولا سَمِعْتُهُ من أحدٍ من أشياخنا ولا رأيته -على أن لنا بحثًا وأسرارًا في الصحابة وتعظيمهم ومكانتهم، ما سُبِقَتْ إليها- ولا رأيتُ أحدًا مِمَّنْ لَقِيتُ من أصحابنا عثرَ على ذلك. إلَّا أنهم يُجَمِّمون عليه ويحومون حوله، ولم يجدوا لِتَحْصِيلِهِ مَنَفْعًا. وإنما هو وَهْبٌ إلهي لا يُوصَلُ إليه بعمل، وهم يطلبونه بالاستعداد والمُجاهدة. ثم قالت لي: انتقل بي عن هذا المقام، فقد قصم ظهري!

قلت لها: نعم هذا سلمان الفارسي رضي الله عنه، دونك في النسب الطيبي وإمامك في النسب الديني. رُوينا من حديث إبراهيم بن عبد الله بالسند الكامل عن رجل من أشجع قال: سمع الناسُ بالمدائن أن سلمان في المسجد فأتوه، فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع إليه نحو من ألف. فقام فجعل يقول "اجلسوا، اجلسوا!" فلما جلسوا افتتح سورة يوسف يقرؤها، فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقي في نحو من مائة، فعُضِبَ وقال "ألزحرف من القول أردتم؟ قرأتُ عليكم كتاب الله فذهبتُم؟!"

ناشدتك الله يا نفس، فهذا مجلس حق؛ فاصدقيني: هل سَمِعْتَ قطُّ كتاب الله يُتلى فلم تهتري، فلما أنشد شعرًا اهتزت وجنت وأخذك الحال؟ فقالت: ذلك والله ديدني وهجيري ودأبي أبدا، بل والله أزيدك ما هو أنحس من هذا مما أنا عليه؛ إني أقرأ القرآن ويدركني العياء وأقول لك "والله لا أقدر على شيء، وقد ضعفت وكل خاطري!" فتجيبني إلى ذلك وتترك المصحف من يدك أو التلاوة من لسانك. فما نلبث أن نبهتك على مقطوعة من كلامك أو من كلام غيرك في أي فن كانت، فتفتح فاك بما وتُشدها وتترنم فيها وترتلها مترسلاً على طريقة تستحسنها نشيطاً طيب النفس، ما بك من كسل ولا عياء. فلو كان ذلك الكسل والعياء حقيقةً مني

لاستصحبك، وإنما ثقل عليّ القرآن؛ فكنتُ أجعلك في تلاوته تحدر ولا تُرتل عسى نستريح. وكذلك في أورد العبادات التي يجب الثبوت فيها. وذلك والله كله خديعة مني بك.

أثرى هكذا هي حالة المؤمن؟ لا والله، بل كلام الله للمؤمن أحبُّ الكلام وألذُّه، وأشوق إلى سماعه من الظمان للماء الزلال ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ على نقص الإيمان، بل والله على ذهابه! يا شؤم نفسي ويا حسرتي ويا أسفي؛ كم مرّة والله سمعتُ آيةً من كلام الله فتقلتُ عليّ ومَحَجَّتْهَا، وكم والله رتّةٍ شعرٍ سمعتها فاستعذبتها! أخاف والله، يا وليي، على نفسي وعلى مَنْ هو مثلي أن يُنقل اسمه من ديوان المؤمنين إلى ديوان مَنْ قال فيهم الحقُّ جل وعلا ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وقد اتّصفتُ بهذا ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقد اتّصفتُ بهذا؛ ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾

يقول القوّال زُحْرَفَ القول وغُرُورَه فَأَهْتَرَّ وَأَقُومُ وَأَقُول "شاباش؛ هذا والله حسن!" فأقسم بالله كاذبا. ولا يزال الملعون من شيطان يُرَقِّصُنِي وَيَزِفُنِي، كما يفعل صاحب القرد بقرده. فإذا أخذ حاجته مِنِّي صَفَعَنِي صَفْعَةً فَأَضْجَعَنِي، فيقوم من قَلِّ فلاحه مثلي فَيُغَطِّبُنِي بِرِداءٍ حتى يُخَلِّي سبيلي. وأقوم فأهتأ وقد عزّاني المَلَأُ الأعلى في ديني وفيما مضى من عقلي. فإذا كان آخرَ الليل أنام، أنا والجماعةُ السَّوءُ مثلي، وقد تعبنا من كثرة ما رَقَصْنَا، فلا نَلْحَقُ نَنام إلا والصُّبْحُ قد قام، فنقوم نتوضأ أقلَّ ما ينطلق عليه اسمُ الوُضوء ثم نَجِيءُ إلى المسجد.

هذا إذا وُفِّقْتُ، وإلا فالأغلبُ على مَنْ هذه حالته أن يصليَ في داره بـ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ والفاخرة، كيف ما كانت، والقنوت ليس بواجب فأتركه، وأنقرها مُخَفِّفَةً جداً ثم أضطجع إلى وقت الضُّحى لأستريح. هيهات والله، ما كانت طريقُ الله هكذا!

وإن كنت مُوفقاً أكثرَ من غيري، تَوَضَّأت وخرجت إلى المسجد. فإذا دخلت يُقال لي "قد صَلَّى الناس!" فلا أجد لذلك حُزناً ولا أَكْثَرَتْ، بل أَقيم الصلاة وأصلي وأُخرجُ وكأنَّه ما فاتني شيء؛ لاهي القلب مسروراً. وأقول بلسان الحال: قد حصل لي أجرُ الجماعة بقصدي وأراحني الله من تطويل الإمام! وإن أدركتُ الصلاة مع الإمام فأنا في تلك الصلاة على أحد وجهين، إذا كنتُ مُستريح القلب من كل شيء: إما حاضرٌ في ليلي البارحة وحُسنها وما كان أحسن ذلك القول وشعره! وأقضي صلاتي كلها في هذا حتى لا أدري ما صَلَّى الإمام ولا بما صَلَّى، وإنما رأيتُ الناس يفعلون شيئاً ففعلت مثلهم؛ ركعوا فركعتُ وسجدوا فسجدتُ ووقفوا فوقفت وجلسوا فجلست.

أو يكون النومُ قد أخذ مني، وهي الحالة الثانية، فأترقب عند ذلك فراغ الإمام وتثقل عليّ القراءة وأغتاب الإمام في نفسي وأمقته، وأقول: ما أثقله، قد افتتح سورة الحشر أو الواقعة؛ هلاً كان قنع بالانفطار أو الفجر؟! والنيُّ صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بالتخفيف؛ هذا خلاف السنة! ونُحوقِل ونُهَلَّل، كل ذلك لغير الله تعالى.

أما تستحيي يا نفس من الله، وقد وقعت البارحة مسخرةً للشيطان وملعبةً له، ورببتك مصفعةً وناصيتك بيده؟! وأنت في هذا كله تلندين! ثم الداهية العظمى، والطامة الكبرى والداء العضال والمُصيبة الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة، أني أقول في تلك الحالة كلها: إني كنتُ مع الله وفي الله، وبالله قمتُ وفي الله شطحتُ وإلى الله وصلت، وقلتُ لله وقال لي الله! ويعتب أولئك الأعمار الجهال مثله فيقول "لم لم تسألوني إذ رجعت من حالي؟!"

ولو سُئل لافترض، ولو فرضت أنه أجاب فقد يُجيب الكاذب عما يُسأل عنه مثل هذا، ويؤيده الشيطان بخيالات ينصبها له ويؤيدها في سره، فيُعبر عنها. قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فهذا وليُّ للشيطان ينطق بلسانه، وهو مُطيع له؛ فانتظم في أهل الشرك.

فناهيك من مجلس يحوي ويضم المشركين وأولياء الشياطين؛ ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ
الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾!

أخبرني شيخني، وكان من أهل الكشف والوجود، عن رجل أعمى البصر من
الصالحين. حضر مبيتا فيه سماع، فقال الأعمى "هذا إبليس قد دخل على سورة
معزي" فرآه يشتم الجماعة واحدا واحدا، وقعد الأعمى ينعت الأول فالأول من
الجماعة على التتابع كما هم عليه من الجلوس واللباس والصورة، وهو يقول "تري
الملعون يمشي عليهم ناظرا إليهم" حتى قال "تراه قد ثبت عند واحد عليه عباءة حمراء
وعمامة وإحرام، التفتوا إليه!" قال: فالتفتنا إليه فرأيناه يستجلب الحال، فقال الأعمى
"أرى الملعون قد وقف عند هذا الرجل، تراه يريد ينطحه بقرنه" قال: ثم حمل عليه
فطعنه بقرنه، فإذا بذلك الرجل قد صاح صيحةً وغلب عليه الحال وقام يشطح، فقام
أهل المجلس لقيامه وهو بهذه المثابة. ما أحسن قول الله تعالى إذ قال ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ
الشَّعْرَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فناهيك من خصلة لم يرضها لنبيه، وقال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾!

بارك الله فيك يا نفس، أقررت بالحق وخضعت له. فقالت: الحق أحق أن يتبع،
صدق والله سلمان رضي الله عنه، ورضي عن أبي مدين حيث قال "لا يكون المرید
مُریدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد"؛ هذا مقام المرید، فما ظنك بالعارف؛ هل
يُعرِّج على كلام غير سيده؟!

وكل من سمع من الشيوخ فهو على أحد أمرين: إما قبل أن تحصل له مرتبة
التمكين؛ فالسماع عندنا عليه حرام في ذلك الوقت. أو سمع بعد التمكين بشروطه
المعروفة، التي ذكرناها في غير هذا الموضع، ويُعلم من هذا أنه قد نزل من المقام إلى ما
هو أسفل منه وأدنى لحظ نفسي. ولهذا قلنا في حق بعض من لقيناه من المشايخ -
وكان يولع بالسماع، وكان قبل ذلك لا يقول به- فسئلنا عنه فقلنا: الشيخ مُتمكِّنٌ
ومقام السماع نازل وحظُّه النفس. فما هو الشيخ، والله أعلم، إلا نزل إلى السماع

رحمةً بنفسه دنيويةً، وجاد على السماع بذلك ليشرّف به السماعُ. فإن السماع يشرّف بالعارفين ولا يشرّف به العارفون؛ فصار نزولُه إليه كترول الحقّ لعباده «هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مُستغفر فأغفر له؟» فشرّفنا تعالى بتزوله إلينا ولم يشرّف هو بنا.

هذا إذا كان الشيخ عالياً، ولكن يقع منه هذا نادراً، إلا إن أراد الحق أن يُبقيه فيه زماناً طويلاً. فيعلم الشيخ، إن كان عارفاً مُتمكّناً، أنه مطروّد وأن رجوعه إلى السماع مُستصحبا عقوبةً من الله عز وجل لذنب أتاها. ولذلك عاقبه بالسماع؛ فلا يجد حاله إلا فيه ويفقدها إذا فقده، مكرًا من الله به واستدراجاً. فيبكي على نفسه ويبحث على ما جنته نفسه فيجد ذنباً ضرورياً، لا بُدّ من ذلك. والله يُليّسنا وإياكم رداء العافية ويُحلّنا وإياكم المراتب السامية العالية، ولا يجعلنا وإياكم ممّن له إلى سماع الغناء أذنٌ واعية، فنكون من أهل القلوب اللاهية!

يا نفسُ أعرِضِ عليكِ غيرَ هذا؟ قالت: نعم أحوالٌ مثلُ هؤلاء هي الشفاء والدواء، إذ ليس لنا سبيلٌ إلى الله تعالى إلا على مدارجهم ولا ارتقاءً إلا على معارجهم، فبأحوالهم نتحقّق وهي الموصلة إلى الحق. قلت لها: نعم هذا أبو الدرداء، رضي الله عنه. روينا من حديث أحمد بن جعفر بن حمدان بسنده عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء "إنك لا تفقه كلّ الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً، وإنك لا تفقه كلّ الفقه حتى تَمُقّت الناسَ في حَنَبِ الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشدّ مَقَتاً منك للناس!" وكان أبو الدرداء من الذين أوتوا العلم.

ناشدتك الله يا نفس، هل كنتِ قط على ما أشار إليه أبو الدرداء؟ قالت: كنتُ على بعضه لا كلّ. قلت لها: فقد نقصك من الفقه على قدر ما نقصك منه؛ فقد ثبت جهلك. قالت: صدقتَ ولكن اشرح لي قوله، فإن فيه إجمالاً. قلت: لها نعم وسمّعا وطاعة؛ أما قوله "إنك لا تفقه كلّ الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً" فتحت هذا

الكلام بحور طامية وأسرار عالية، عمادها الذي ترجع إليه معرفة القرآن ومزلته وتنزله، وليس هذا المكتوب يحتمله لما بُني عليه من الاختصار.

فأما الوجوه يا نفس التي يكون بها فقيها من رآها فهي كثيرة، نذكر منها وجهين أو ثلاثة: فمنها المسألة التي كنا فيها من سماع الشعر، وذلك أن الإنسان له أحوال كثيرة يجمعها حالتان مُسمَّيتان بالقبض والبسط، وإن شئت الخوف والرجاء، وإن شئت الوحشة والأنس، وإن شئت الهيبة والتأثس، وغير ذلك. فمتى ما اتَّصف الإنسان، عارفاً كان أو مُريداً، مُتمكِّناً أو مُتَلَوِّناً، بحال من هذه الأحوال؛ فإنه من المُحال أن يتَّصف بها عبداً من غير باعثٍ ولا داعٍ إليه. إلا في وقت ما، هو مقام مُفزع، من غير باعث، نصَّ عليه الشيوخ، وهو أن تجد قبضا أو بسطا وتجهل سببه. فالمُحققون يخافون من ذلك أن يَمكر الله بهم فيه.

فمتى اتَّصف الإنسان بشيء من هذه الأحوال، فلينظر من داعيه إلى ذلك ومن سُلطانه. فإن كانت آية من كتاب الله تعالى فإنَّ حاله انبَنَى على أصلٍ صحيح. وبيان ذلك أن النفس ليست بِمَحَلٍّ لِلْقُرْآنِ الكريم، فإنه يثقل عليها بطبعها وحقيقتها. وهنا تفصيل، فإن القرآن يُعمِّم الحقائق كُلَّها، والنفس من حُمَلَتِها، فلا بُدَّ أن يكون لها فيه نصيب، وما بقي إلا تعيين ذلك النصيب من غيره - وكنا نذكره لولا المُدَّعي أن يأخذه، فتركناه لهذا السبب.

والشيطان أبعد من أن يكون له حالٌ فيك، فإن الشيطان ليس له منك من يأخذ منه إلا نفسك، وهي قد أبت عن حمل القرآن لضعفها عنه؛ فمن المُحال أن ينبعث من القرآن حال من الأحوال من الشيطان أو من النفس ألبتة. وتعرف عند ذلك أن الحال في العقل، والعقل في الروح لا في النفس، وأن الروح صاحبُ المَلَك، وأن المَلَك صاحب العلم والفِراسة والإلهام واليمين والآخرة والذكر والحق واليقين.

فلا بد أن تكون في حالك، الذي قام بك من القرآن، صاحب علم أو شيء مما ذكرناه لك. ولهذا أشار الجنيد رضي الله عنه بقوله "علمنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب

وَالسُّنَّةَ" ولهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

كما أنه إذا انبنى الحال من الشَّعْر والسماع والصَّفْق والألحان، إنما يتلقاه من الهَوَى. والهوى في النفس، والنفسُ صاحبة الشيطان الذي الشَّعْرُ نَفْثُهُ، على ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم. إلا ما تعلق منه بتوحيد الله عز وجل، فهو مَحْمُودٌ من مَحَامِدِ النفس خاصة؛ ما زال انبعثه من أصله.

وإن الشيطان للنفس بمثلة الملك للروح. فكما كان الملك أميناً على الأوصاف التي ذكرنا بعضها، كذلك الشيطان في مُقابَلته. فصاحب الجهل في مُقابَلَة صاحب العلم، والظنُّ في مُقابَلَة الفِراسَة، والوسوسة في مُقابَلَة الإلهام، والشَّمال في مُقابَلَة اليمين، والدنيا في مُقابَلَة الآخرة، والغفلة في مُقابَلَة الذِّكْر، والباطل في مُقابَلَة الحق، والشُّكُّ في مُقابَلَة اليقين، والمَعْصية في مُقابَلَة الطاعة، والتشبيه في مُقابَلَة التَّزْيِين، والشُّرْكُ على مراتبه في مُقابَلَة التوحيد، وغير ذلك مما تضيق هذه العُجالة عنه؛ فإنه بابٌ واسع هذا أُنْمُوذَجُهُ.

وكل حال ينبعث عن القرآن فلا بُد أن يعلو بصاحبه إلى أحد هذه المنازل على قدر السماع. ومعنى ينبعث عن القرآن: لا يزول سامعه عن المعنى الذي نزل له القرآن. لا لخيال قام به عند تلاوة القرآن في معشوقه أو المرأة التي اتخذها أختاً في الله على دَعْوَاه، ولكل هذا شروط. وكل حال ينبعث عن الشعر وعن هذا السماع فلا بد أن يتزل بصاحبه إلى إحدى هذه الدركات.

وسر ذلك أن أصل انبعاث القرآن كلامُ الله المقدَّس الذي ما اعتراه قطُّ نقصٌ ولا تدنيس، ولا جاز عليه ذلك؛ فمن المحال أن يعطي إلا بحسب طهارته. وأصل انبعاث الشعر كلامُ المخلوق الناقص الدنيس، الذي ما صحَّ له كمال طهارة لا متزاجه. فالغاية في الشعر أن يكون مُمتزجاً، لا تكمل طهارته أبداً، ومن ثمَّ إلى أنزل في النقص والتدنيس؛ فمن المحال أن يعطي أبداً إلا حالاً ناقصاً دنساً.

هذه حالة العارفين المكملين فيه، ومعهم أتكلّم، وكثيرٌ من السادة الكبار يعرفون هذا من نفوسهم. وأما من نزل عنهم من المدّعين والمريدين فلا كلامٌ لنا معهم. ولهذا قال أبو يزيد البسطامي في سماع العارفين مطلقاً، يحكم على مقام أهل السماع، أنهم أهل الكدية. واستعاذ بالله منه، كما استعاذ من طيّ الأرض والمشي على الماء وفي الهواء، وسأل أن يهيئه الله لشيء من أشيائه، أي سر من أسرارهِ. فلو نيلت هذه الأسرار في السماع لما استعاذ منه مثل أبي يزيد! وقال في حق المريد "إذا رأيت المريد يميل إلى السماع، فاعلم أن فيه بقيّة من البطالة" فجعل محلّه للمريدين البطالة وللرجال الكدية.

وإنما سقتُ كلامَ أبي يزيد لما وصلني عن بعض الناس من المقلّدين في هذه الطريقة أنه قال، لما سمع مني الإنكارَ في السماع، وقد أوضحتُ له حقيقته حتى اعترف بها، فقال "تقليدٌ بتقليد؛ فالأولى أن أقلّد الشيوخ المتقدّمين الذين قالوا بالسماع!" فلهذا سُقنا كلامَ أبي يزيد، لكونه من المتقدّمين وأن كلامنا مُوافق له. ولقد بلغني من ثقة عن رجل من المُتَشَيِّخين لا من الشيوخ، كان يُلازم مجلسنا فسمعنا نتكلم في السماع وإجازته وأنه مُباح وبيّنا نقصه في المقامات وحده وأين ينتهي بصاحبه، فغضب وانقطع. فسألت عنه وما شأنه فقليل أنه قال "قد كان الشيوخ يسمعون مثل ابن الدقاق وعبد الرزاق وغيره".

فلم أدرِ قبلُ ممّ أتعجّب: من جهله في الحكم على الحق بالرجال، والرجال لا يُعرفون إلا بالحق، لا الحق يُعرف بهم؛ فهذا جهل محض وتقليد صرف. ومن هذه حالته في العلم، كيف يُرجى فلاحه في نفسه أو كيف يُتصور أن يفلح به غيره؟! أو أتعجّب أيضاً من عدم تحصيله لما أوردناه في السماع؛ فإننا لم نُحرّمه بل أجبنا إنشاد الشعر والغناء على القدر الذي جاءت به الشريعة، ثم تكلمنا في نقصه من المقامات وأين منزلته، والفرق بينه وبين غيره، كما نفرق بين المُتوكّل والزاهد، أي

الذي ينسني على معرفة التَّوَكُّل ما هو والزهد ومقامه. فإن المتصف بصفة ما يكون بحيث مقامها ويتميز في أهلها.

وقد سمعت من أبي محمد عبد العزيز، المكتوب له هذه الرسالة، إشارة عجيبة لا يعرفها إلا مُتَمَكِّنٌ متحقِّقٌ جداً في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فقال رضي الله عنه: سرُّ هذه الآية في قوله تعالى ﴿لِبَشَرٍ﴾ ولا يكون بشراً إلا من غلبت عليه البشريَّة. وفي الآية عندي تفصيل عجيب، وفي نساء يوسف عليه السلام ما يؤيد إشارته ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وعندنا من الدلائل عليه ما لا يُحصى. فهذا من بعض وجوه القرآن التي نبه عليها أبو الدرداء رضي الله عنه.

ومنها أن يُرَدَّكَ إلى الحق ويصيرفك عن الخلق، في معاشك وما ضَمِنَ لك، وغير ذلك مما تَحَذَرُ وترجو؛ فإن القرآن يُحَرِّضُكَ على هذا. وكذا فعل أبو الدرداء بآية قرأها، قال: فأردتُ أن أجمع بين العبادة والتجارة، فلم يجتمعا؛ فأخذتُ في العبادة وتركْتُ التجارة! يؤيِّده قول الله لموسى عليه السلام «أُطْلُبْ مِنِّي كُلَّ شَيْءٍ؛ حَتَّى الْمَلَحْ تُلْقِيَهُ فِي عَجِينِكَ!» وهذا المقام هو الذي أخذه سَالِمٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدَّم ذكره. وهذا بعض ما في كلامه.

قالت النفس: قلتَ الحق، وفي هذا غُنيَّةٌ لي إن كنتُ عاقلة؛ فالويل لِمَنْ يَعْلَم ولا يعمل سبعَ مرات! وقد بقي لي الكلمتان: "مقتُ الناس في جنب الله ومقته لنفسه"، ومقت الناس مُشكِل.

فقلت لها: يا نفس، ليس الأمرُ كما ظننتِ، أَرِيعِنِي سَمْعَكَ؛ أما قوله "ولا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله" فاعلمي أن للإنسان حالتين، لا يخلو؛ إما أن يغلب عليه رُبُّه أو نفسه. فإن غلب عليه ربه لم يعرف الناس ولا ما هم عليه، وأداه ذلك إلى تركهم في جنب ما حصل في نفسه من الأُنْس بالله - فيمقت هنا بمعنى يترك،

فإن من مقت شيئا تركه، فكُنِّي بالأصل هنا عن الفرع. وأما من غلبت عليه نفسه، فالملت هنا على بابه وصورته.

ومقتة للناس: أنَّ الغالب على الناس المخالفة والبطالة؛ فلا يزال يمقت منهم تلك الأفعال وينبّههم عليها ويقرّع أسماعهم بها وينصّحهم في دين الله وجنبه. فيثقل ذلك عليهم ويستخفونه ويردونه، ويجتنبونه ويسدّون الأبواب في وجهه، حتى يتركوه فردا وحيدا؛ لا صديق له ولا معاشر. كما قال عليه السلام «ما ترك الحقُّ لِعمرٍ من صديق!»

فإذا رجع الناس أعداء لا يُكلمونه، رجع بالضرورة إلى نفسه وتفرّغ إليها في جنب ربّه؛ فمقتها بأنواع من التوبيخ: من قلة الصّدق في العمل، وعدم الإخلاص، ودخول العلل في المخاطبات والخواطر والتّصيحة والإشارات. فصار مقتّه لنفسه أشدّ من مقته للناس. ولا يقدر ينفصل عن نفسه، ولا تنفصل عنه مثل الناس؛ فيفتح له في ذلك من الفقه الإلهي والعلم اللدني ما لا يعرفه إلا مَنْ شاهده. وحسبك يا نفس، فقد أطلت عليّ سؤالك، فاقنعي بهذا القدر. فإن هذه المسألة أعظم وأقوى من أن أبسط شرحها في مجلدات!

فقال: قنعتُ وبالله استعنت. فهاتِ غيره، فقد والله عرفتُ وتحقّقتُ أي لا شيء ولا أصلح لشيء، وأني في وجودي وفي عيني كما كنتُ قبل وجودي ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ وفي الحقيقة لم يزل كذلك ولا يزال!

قلت لها: نعم، هذا عثمان بن مظعون، صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أُوذي في الله فرَضِي وتعرّض لذلك لَمّا مات. دخلَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حينَ مات، فأكبَّ عليه ثم رفع رأسه ثم حنّى الثانية ثم رفع رأسه ثم حنّى الثالثة ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه يبكي، فبكى القوم. فقال صلى الله عليه وسلم «اذهب عنها أبا السائب، فقد خرجت منها ولم تُدّس منها بشيء!» رويها

هذا من حديث أبي حامد بن جبلة بسنده عن ابن عباس. وفي رويننا أيضا من حديث أبي بكر بن مالك بسنده عن عبد ربه بن سعيد المدائني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت، فأكبَّ عليه يقبله فقال «رَحِمَكَ الله يا عُثْمَان، ما أَصَبْتَ من الدنيا ولا أَصَابَتْ منك!»

ناشَدْتُكَ اللهُ يا نفس، فَنِعِمْتَ النفسُ عَهْدْتُكَ في الإِنصافِ مِنْ نَفْسِكَ، حَبْرِيْنِي؛ لو كُنْتَ في زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الحَالَةِ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا اليومَ وَتَمُوتِينَ، هل كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ بِكَ مِثْلَ هَذَا؟

قالت: أَمَا لو جازاني على ما أنا عليه لَخِفْتُ والله أن يقول لأصحابه «صَلُّوا على صاحبكم!» بل أَعْتَقِدُ والله في شَأْنِي أَنِّي أَقْرَبُ إلى قولِ اللهِ ﴿وَلَا تُصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ مَنِي إلى قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ هَيْهَات، كيف أرجو أن يُكَبَّ عَلَيَّ أو يَقْبَلَنِي؛ بل كَانَ يَكِي عَلَيَّ شَفَقَةً لِّمَا يَرَاهُ مِنْ سُوءِ حَالِي وَشَرِّ مَا انْقَلَبْتُ إِلَيْهِ! فَيَا لَيْتَهُ يُؤْذَنُ لَهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الصَّلَاةِ عَلَيَّ.

غَيْرَ أَن قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَعْرَضِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ «مَا أَصَبْتَ من الدنيا ولا أَصَابْتَ منك» أَخَافُ أَن يَكُنِي عن حَبِّهِ إِيَّاهَا أَنَّهُ مَا سَعَى لَهَا وَلَا أَصَابَتْ مِنْ قَلْبِهِ تَشَوُّفًا إِلَيْهَا. وَلَكِنَّهُ أَتَتْهُ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ لَهَا، فَقَبِلَهَا وَتَصَرَّفَ فِيهَا. فَلَبِسَ مِنْهَا الرُّقَاقَ وَأَكَلَ مِنْهَا الرُّقَاقَ وَعَلَا مَسْكَنُهُ، مَعَ فَرَاغِ الْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ؛ وَهَذَا في الْقُدُورَةِ جَائِزٌ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ في زَمَانِي هَذَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ التَّمَكِينِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْمَعَارِفِ قَدْ فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ: أَكَلُوا الشَّهِيَّ مِنَ الطَّعَامِ الْغَالِيِ ثَمَّنُهُ وَشَرَبُوا اللَّذِيذَ مِنَ الشَّرَابِ وَلَبَسُوا الرَّفِيعَ مِنَ الثِّيَابِ، وَرُبَّمَا شَيَّدُوا الْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوهُ وَرَفَعُوا سُقُوفَ بَيْوتِهِمْ إلى حَيْثُ لَا يَحْتَاجُونَهُ. وَذَلِكَ عَنْ أَمْرِهِمْ بِذَلِكَ أَوْ عَنْ اسْتِحْسَانِهِمْ لَذَلِكَ وَسُكُوتِهِمْ عَلَيْهِ. وَلَمْ

يعدلوا بعدَ المعرفة، والتَّحصيل لِمَقام التَّمكِين، إلى ما كانوا عليه في بداياتهم من ترك الأسباب وطَرَح الرِّقاع بعضُها على بعض؛ فأخافُ أن لا يكون هذا كذلك.

وقد قيل عنه «ما أصابت الدنيا منك شيئاً ولا أصبت منها شيئاً» من باب السَّعي والكَدِّ لها. فأوضح لي شأنه وكيف كان حاله. وهذه الحالة التي رجَّع إليها العارفون، هل هي خيرٌ مما كانوا عليه أم كانوا في حال فقرهم ونقصهم أحسن وأثبت؟

فقلت لها: نعم، أما حالُ عثمان بن مظعون هذا وحالة العارفين الذين ذكرتهم من بسط الدنيا، فروينا من حديث عبد الله بن أحمد بسنده عن ابن شهاب أن عثمان بن مظعون دخل يوماً المسجد وعليه نَمرة قد تخللت فرقعها بقطعة من فروة فرق له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورقَّ أصحابه لرَّقته فقال «كيف أنتم يومَ يغدو أحدُكم في حُلَّة ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه قِصعة وتُرفع أخرى، وسترُثم البيوت كما تُستر الكعبة؟!» قالوا "وددنا أن ذلك قد كان يا رسول الله، فأصبنا الرِّخاء والعيش!" قال «فإن ذلك لكائن وأنتم اليوم خير من أولئك!»

فهذا الحديث يا نفسُ قد أنبأنا عن الفريقين اللذين سألتيني عنهما. هذا حالُ عثمان على ظاهره؛ فقير في الدنيا. وهذا حال من توسَّع في الدنيا من العارفين. قد جعل الله حالة الضيق والشَّدة خيراً للإنسان من الرِّخاء والسَّعة. وكأني والله بك يا نفسُ تقولين: أرى أهلَ هذا المجلس، وهم الصحابة الأخيار، وهم العارفون بالله المُتَحَقِّقون بحقائق الوجود، لَمَّا ذكر لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم صورةَ التَّعَمُّم والترَفُّه اهتزَّوا، وسألوا متى ذلك، وفرحوا بهذا القدر. فكذلك أنا أيضاً أرضى بهذه المتزلة، وكذلك العارفون الذين وسَّعوا على أنفسهم دنياهم.

فقلت لها: ما أعماك عن نور مشكاة النبوة الساطعة أنوارها! فقالت: ألا تنظرُ إلى كلامها ظاهراً؟! هذا لتعلم أن النعيم لا يحجب عن الله، ولا الشقاء والبؤس يحجب عن الله، إذا كان الحقُّ غالباً على قلب العبد. فإنه لا نعيم أشدُّ ولا أعظم من

نعيم النبيين والأولياء في الجنة، في ملابسههم وماكلهم ومشاربهم ومناكحهم ومراكبهم ومفاكهتهم. ولا يحجبهم ذلك عن الله ألبتة لسرّين كبيرين.

قلت لها: فأنا مسلم أن ذلك لا يحجب عن الله، ولكن قال الرسول عليه السلام لتلك الجماعة، الذين قالوا "وددنا أن ذلك قد كان فأصبنا الرخاء والعيش" لتحققهم بالله وعلمهم أن الأحوال لا تحجب عنه تعالى: «فإن ذلك لكائن» يعني بسط الدنيا عليهم، مبشراً بفتح مُلك كسرى وقصر، ثم قال لهم « وأنتم اليوم خير من أولئك!» فأشار بقوله "وأنتم" لعصمتهم من الدنيا، وإن فتحت في حياتهم، كأبي عبدة بن الجراح وغيره رضي الله عنهم. وفي ذلك ترجيح الفقر وشطف العيش على النعيم.

فبين لهم هذا المقام ونبههم على نقص ذاك المقام ونقص من اتصف به، وإن أبقيت عليه مشاهدته ومعرفته؛ فإنه نعيم استعجله في غير موطنه وترفعه استعمله في غير موضعه. فوضع الحكمة في غير موضعها، فعادت معرفته جهلاً وكشفه حجاباً وحقيقته خيالاً. ألم ترى إلى الذي قال "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً!" لعظيم الكشف. وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف اجتنب طيب الطعام وفهم من كلام الله ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أنه ينسحب على كل إنسان من مؤمن وكافر؟!

أثري يا نفسُ هذا العارف الذي وسّع عليه في دنياه يكون أفقه من عمر بن الخطاب، وهو الذي وافق ربّه في الأحكام، وقد شهد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام أنه ليس من الباطل في شيء؟! أجيبني يا نفس، فإنك لا تعدّين قدرك، لا أنت ولا العارف الذي وسّع عليه! وإذ لا بد التأسّي، فحالة النبي أولى، فهو الذي عاش في البؤس وضنك العيش حتى رقّ له عمرٌ كما أثر شريط السرير في جنبه، صلى الله عليه وسلم، فقال "تذكرت كسرى وقصر!" فقال له عليه السلام «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!»

أين أنت يا نفس من قول سلمان الفارسي على ما رويناه من حديث أبي أحمد بسنده عن رجل من بني عبس قال: صحبتُ سلمان، فذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى، فقال "إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخوّلكم لُمُسكٌ خزائنه! ومحمد صلى الله عليه وسلم حيّ، لقد كانوا يُصبحون وما عندهم دينارٌ ولا مُدٌّ من الطعام؛ بِمَ ذاك يا أخا بني عبس؟!" ثم مررنا ببيادر تُذرى فقال "إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخوّلكم لُمُسكٌ خزائنه! ومحمد صلى الله عليه وسلم حيّ، لقد كانوا يُصبحون وما عندهم دينارٌ ولا مُدٌّ من الطعام؛ بِمَ ذاك يا أخا بني عبس؟!" فانظري يا نفس كلامَ هذا الصاحب وشرحه لحالة النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره وتقريره في قوله "بِمَ ذاك؟!"

ثم إنه لو كانت الدنيا تُنال على حسب المراتب عند الله من الرِّفعة لكانت كلها لرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا أرفع منه منزلةً عند الله ولا أرفع منه درجةً ونعيمًا في الجنة، وهذه حالته في دنياه. ولم يرض لقُرّة عينه بنته فاطمة رضي الله عنها أن تنال فيها راحةً ولا تَوَسُّعا، وقد رأى أثرَ جبل القربة في عُنُقها من حَمَلِ الماء وأثرَ الرحي من الطحين في يديها، وجاءه السَّيْفُ فلم يرَ أن يُعطيها خادِمًا يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذي نزل بها، وأعطاهَا بدلَ ذلك تسبيحًا وتحميدًا وتكبيرًا، وقال «هو خير لك!»

فأين أنت يا نفس، وبِهذا العارف؟! فلا الحقُّ تعالى رضيها لنبيه ولا هو صلى الله عليه وسلم رضيها لابنته ووَصِيَّه! وإذ لم تقتدي بهذا النبي ولا عرَفتَ تزييل الحقِّ للمواطن، فقد خرجت عن حَدِّ المعرفة بالله تعالى وحبِّ حالة رسوله صلى الله عليه وسلم وأتباعه. ولا فائدة ولا تمييز للعارف عن غيره من العامة إلا باستصحابه في حالته حالة النبي صلى الله عليه وسلم، وأما العامة فانهمكت في المُباحات. فبِمَ تَمَيَّزَ عنهم في ظاهرِكَ كما تدّعيه في باطنِكَ؟!

أُلسْتُ تدرين يا نفس ليلة كنا عند أبي محمد عبد العزيز، المكتوب له هذه الرسالة، ونحن على العشاء فتكلّمنا في حالة الدنيا إذا أقبلت على العارف وتصرّف فيها، مع تعرّي قلبه عن التعلّق بها، فقال رضي الله عنه "والله ما يستوي فراغ قلب عارف عنده درهمان وفراغ قلب عارف عنده درهم؛ فصاحب الدرهم أفرغ من صاحب الدرهمين!" هذا حكم الشيخ أبي محمد عبد العزيز في هذا الحال، فكيف لو دخل معك في باب المَقام والأسرار؟! لكان يرميهم خارجا عن المعرفة! فإن الحقائق ترميه والموطن يمجّه.

حكاية: جاء رجل إلى سيّدنا أبي مدين فقال له "يا سيدنا إن الشيطان يؤذيني، فعسى أن تدفعه عني!" فقال له الشيخ "قد شكّا إليّ إبليس منك قبلك!" فقال "وما قال لك؟" قال "قال لي: يا شيخ، لتعلم أن الدنيا خلقها لي ربي وجعلها حبالِي وشركي وملّكنيها. فجاء فلان فتعدّى عليّ فيها وأخذ لي منها، فعدوت وراءه أطلب حقّي منه. ووالله ما قصدت منهم إنسانا ولا طلبت منهم أحدا ولا برحت من مكاني، أحفظ عليّ بستاني ومالي؛ فمن أخذ لي منه شيئا تبعته أطلب حقّي. وقد عرفت أن فلانا يشكوني إليك فسبقته وأخبرتكَ بالقصة. وأنا لا أترك منه حقّي وأسلبه مما أقدر عليه من دينه أو يردّ إلي متاعي، كما فعل الزُّهّاد والموفّقون، ولهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فما لي عليهم حُجّة ولا حق؛ فإنهم تركوا ما هو لي. وهذا تعدّى عليّ ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾؛ مَنْ الظالم؟" فقال الرجل "أنا" فقال الشيخ "رُدّ إليه دنياه يردّ إليك آخرتك!"

هل قنعت يا نفس؟ قالت: نعم. قلت: هذه عشرة شهود كما شرطت لك، قد وفّيت بذكرهم، من خير القرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم أجد لك قدما مع أحد منهم، فلمن اتّبع أو بمن تأسّيت؟ فقالت: اتبعت هواي

وتأسيتُ بشيطانٍ مُدَّعٍ في المعرفة مُكِبٌّ على الدنيا مثلي، فأثّر لي الدعوى وعرائني عن ملابس التقوى؛ وأنا أتوب إلى الله الآن وأتضرّع إليه في الوفاء والعدل في الميزان. وكما وفيت أنت بشهودك العشرة ومننت عليّ بذلك، فقد وفيت لك أيضا بالإنصاف والإقرار بالحق والاعتراف، ولم أمار ولا دافعتُ الحق بل كنتُ سَلَسَةً القياد، وذلك بتوفيق الله، وعصمني الله ممن قال فيهم ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَجَحَدُوا بِهَا، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ. ظُلُمًا وَعُلُوًّا. ولو عاندتُ وجحدت لما جنيت على أحد إلا على نفسي، رزقني الله وإياك من توحيده والعلم به سبحانه المراتب العلية والمنازل القدسية، حيث لا درن ولا تدنيس ولا جهل ولا تلبس، إنه عليم حكيم.

فاشرع في النمط الثاني، فلقد لقيت سامعا مُطيعا. فقلت: الحمد لله ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ فقالت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ؛ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾؛ حمدي يا سيدي أسلم من تحميدك؛ فإنك في معرض الفتنة من جهة التسخير، وحمدي على تحصيل الهداية والتيسير.

فقلت لها: صدقت، أرعيني سمعك؛ هذا خيرُ التابعين بشهادة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، أعني أويس بن عامر القرني رضي الله عنه الذي أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم عمر وغيره وذكره لهم. رُويَنا من حديث أبي بكر محمد بن أحمد بسنده عن أصبغ بن زيد قال: كان أويس القرني إذا أمسى يقول "هذه ليلة الركوع" فيركع حتى يُصبح وكان يقول إذا أمسى "هذه ليلة السجود" فيسجد حتى يصبح، وكان إذا أمسى تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول "اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به ومن مات غريانا فلا تؤاخذني به".

ناشدتك الله يا نفس، هل اتّصفت بهذه الحالة: قطعت الليل بسجدة واحدة ثم لم ترفعي حتى الفجر أو ركعت فلم ترفعي حتى الفجر، واستصحبت أن لا تبتي إلا

مثلَ هذا المبيت كما استصحبه أويس وقلتَ لله مثلَ ما قاله؟ قالت: لا والله كل ذلك لم يكن، ولكنه يلوح لي من وراء هذا الكلام بوارق من الحقائق عسى أن تنبّهني عليها.

قلت لها: نعم أويس هذا كان متمكناً في مقامه على بينة من ربه وعلامة، عارفاً بحركاته المستأنفة، على يقين من تحصيل أحواله السالفة. فكانت ليلة السجود عنده معروفة وكذلك ليلة الركوع وغير ذلك من الأفعال. ومن هنا نعرف تمكُّنه، فإن أبا يزيد وهو من الأقطاب ومن كبار الأئمة لم يحصل له هذا التمييز، فإنه كان يقول "إني أستقبل الليلة أطلبُ قطعها راکعاً وساجداً، فأقف في صلاتي فلا أركع أو أركع فلا أسجد أو أسجد فلا أرفع"، فكم بين من يأتي قاصداً وبين من يأتي يمشي فيفتح له؟! فهذه حالة صلاة أويس.

وأما كونه يتصدّق بطعامه وثيابه ثم يقول "اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به" فينبه على مقامه الأعلى وقُطبته المثلى؛ وهذه حالة إمام الوقت وصاحبها على الغاية في المقام، فيعطي ما ملك ويتضرّع لمن استخلفه على عبيده بالرحمة لهم والشفقة عليهم. قال الله تعالى لرسوله عليه السلام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ولما دعا على مُضَرَ جاءه جبرائيل فأوماً إليه أن أسكت، فسكت فقال "يا محمد إن الله لم يبعثك سبّاباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذاباً!" والمكمل من سبقته رحمته غضبه.

قالت النفس: يا سيدي أرفق عليّ ولا تعجل، فقد ظهر لي في مسألة أويس هذا أمرٌ خرج الحلاج فيه فوقه؛ وذلك أن الحلاج رضي الله عنه قال مُخبراً عن حالته "إذا قعد الرجل عشرين يوماً دونَ غداءٍ ثم جاءه طعامٌ فعرف أن في البلد من هو أحوَجُ منه لذلك الطعام فأكله ولم يؤثر به ذلك المحتاج فقد سقط" وهذا مقام عالٍ كما رأيته. وهذا أويس رضي الله عنه ما كان يتصدّق إلا بفضل طعامه وثيابه، فيأخذ حاجته أو لا ثم يعطي ما يفضل كل ليلة عن قوته وهو يعلم أن ثمَّ جائعاً ولم يعطه كما رأيته.

قلت: يا نفس ما أنت إلا اعترضت اعتراضاً من لا يفري الحقائق لأنك جهلت المقام، فاستمعي الجواب واعلمي أن أويسا هو الإمام الذي لا يُلحق. لتعلمي أيتها النفس أن العارف إذا كان صاحبَ حال مثل الحلاج فرّق بين نفسه وبين نفس غيره، فعامل نفسه بالشدة والقهر والعذاب وعامل نفسَ غيره بالإيثار والرحمة والشفقة. وإذا كان العارف صاحب مقام وتمكين وقوة صارت نفسه عنه أجنبية لا فرقَ عنده بينها وبين نفوس العالم، فما يلزمه في حق نفوس الغير من الرحمة والشفقة يلزمه في حق نفسه لكونها صارت عنه أجنبية، وارتفع هو علوياً وبقيت هي مع أبناء جنسها سُفلية؛ فلزمه العطف عليها كما لزمه على غيرها. فإن صاحبَ الصدقة العارف إذا خرج بصدقته ولقيَ أوّل مسكين يدفع الصدقة إليه، فإن تركه ومضى إلى مسكين آخر ولم يدفع فقد انتقل من ربه إلى هوى نفسه وخرج من ديوانهم. فإنها مثل الرسالة، لا يَخَصُّ بها شخصاً دون شخص، أوّل من يلقاه يقول له: قل "لا إله إلا الله".

ولا نشكّ أن هذا العارف إذا وهبه الباري رزقا يعرف أنه مرسل به إلى عالم النفوس الحيوانية فيترّل من حضرة عقله إلى أرض النفوس ليؤدّي إليهم ذلك القدر الذي وجّه به، فأول نفس تلقاه نفسه، لا نفس غيره. وسبب ذلك أن نفوسَ الغير غير ملازمة له ولا متعلّقة به لأنها لا تعرفه، ونفسه مُتعلّقة به ملازمةً لبابه فلا يفتّحه إلاّ عليها، فتطلب أمانتها منه، فيقدّمها على غيرها لأنها أوّل سائل. وإلى هذا السر أشار الشارع صلى الله عليه وسلم بقوله «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»، والأقربون أولى بالمعروف لتعلّقهم بك ولزومهم بابك، والغير لا يتعلّق بك ولا يلزمك ملازمةً نفسك وأهلك. فلما تأخّروا أخّروا، كما هي الأسرار سواء؛ تخرج من عند الحق على باب الرحمة فأبى قلبٌ وجد متعرّضاً سائلاً عند الباب دُفع إليه حظُّه من الأسرار والحكم، وحظه منها على قدر ما يرى فيه من التعطُّش والجوع والذلة والافتقار، وهم خاصّة الله. وإلى هذا المقام أشار المشايخ وعليه حرّضت الشريعة بقولها "تعرّضوا لنفحات الله" ومن تأخّر أخّر ومن نسي نسي.

فانظري كم بين المتزلتين، متزلة الحلاج ومتزلة أويس. وانظري هذا المقام، على علوه وسُموه، كيف اشترك في الظاهر صاحبه مع أحوال العامة؛ فإن العامة أول ما تجود على نفسها وحينئذ يتعدى جودها إلى غيرها. وإنما يتصرفون تحت حكم هذه الحقيقة وهم لا يشعرون. ولما أعموا عن هذا السرّ وصاروا مثل البهائم، لا يعرفون مواقع أسرار العالم مع الله تعالى، حُرّضوا على الإيثار ومُدحوا به. وهو مقام الحلاج الذي ذكرت عنه ورأيت أنه غاية. فهكذا فلنُغزل الحقائق ونُحاك حلل الرقائق.

فقلت النفس: هذا شيء والله ما قرع قط سمعي من غيرك وإن هذا هو الحق المبين و ﴿لَمِثْلٍ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ ولقد شرحت صدرا ورفعت في المعارف قدرا. ولكن بقيت عليك في المسألة تَمْشِيَةٌ إيضاح حقيقة، وهي لعمري دقيقة، وهي قولك أن الله بعث النبي صلى الله عليه وسلم وقد أُسْتُسِقِيَ فاستسقى فسُقِيَ ثم استسقى في العام الآخر فأبى وقال «أَغِيثٌ كَغَيْثِ الْكَفَّارِ؟!» فاختار لهم الشدة على الرخاء، وهو من باب بسط العذاب وقبض الآلاء. قلت: صدقت يا نفس، قد أثبت ذلك في 'الحجّة البيضاء'. قالت: فأودعني إياه في هذه العجالة الغراء.

قلت لها: نعم، خرّج مالك في موطئه عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس بن مالك أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسول الله هلكت المواشي وتقطعت السبل، فادعُ الله لنا!" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمطّرنا من الجمعة إلى الجمعة، فجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسول الله تهدمت البيوت وانقطعت السبل وهلك المواشي!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللهم على ظهور الجبال والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر!" قال فانجابت عن المدينة انجياب الثوب.

يا أهل القلوب المحجوبة عن الاطلاع على ما أودع في هذه الألفاظ من الغيوب:

لقد أسمعْتَ لو ناديتَ حيًّا ولكن لا حياةَ لِمَن تُنادي!
أُعطي هذا السيد العَلمَ صلى الله عليه وسلم مفتاحَ المنع والعطاء والشدّة والرخاء؛ فاستسقى واستصحى، وأثبت ومحا. ثم لازم الأدب بعد هذا فقال "أغيث كعَيْث الكفار؟!" فردّ السائل بسؤاله حكمةً أجراها مُرسلة ومرتبّةً أبدّها مُكمّلةً، فأجاب الأول على غاية الاستيفاء حتى يكون في المنع كما كان في العطاء. ثم إذا نظرت حقيقةَ هذا المنع وجدته عطاء. فملك الوجود كما هو عند الملك وخدم في ذلك كل مسخّر وملك.

إنا لله في قلوب ماتت في صدورها وخزا فلا أحسّ منها من أحد ولا أسمع لها رِكزا! هذا نبي مُكرّم ورسول مُمَجّد معظم قام خطيبا في شأن أداء فرضه وجاء إليه رسولٌ من أهل أرضه، فرغب إليه في نقض إبرامه لما تحقّق من مرتبته عند علامه. فألقى ظهرَ الكف إلى السماء وصفا في الحالة العمياء لما كان الكف محلّ العطاء، ولم يفعل ذلك في الاستصحاء، فأسبل رداءه الجوّ وتموّج من حينه الدوّ، فكان نكاحا معنويا وكان السيد شاهدا ووليّا.

فلما صح الانتظام ووقع الالتحام، درّت الضروع واخضرّت الزروع. هيهات والله بعد تقطّب وبسالة وستور مسدولة دون عين الغزالة واغبار وإقتار وخشوع واقتنار كما قال المهيمن الجبار ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ فأشفقت لها السماء لما أبدت مُقلّتها من خشوعها دامعة فلاحت بين الخشوع والدموع الروضاتُ اليبانة. أين أهل الفرح والدّعة وأرباب الثروة والسّعة؟ والله والله لا نالوا شَمّةً من روائح الوجود ولا اسما من أسماء المعبود إلا ببذل المجهود وصحة المقصود وتفطّر الكبود وخشوع الجوارح وتقصّف الجوانح وإقامة المآتم والمنائح والهمهمة في المحارب بالقرآن والتعرّض بتوفير الهمة وصدق التوجه للرحمن في رِيّ الظمآن.

ناداني الحقُّ في سري "عبدِي وابنِ أمّي وعبدِي، وعزّي وجلالي ومجدي وعظيم سلطاني وعلوّ جدّي؛ لا نال معرفتي أحدٌ ولا ينال ما عندي من جزيل وعُدي إلا

حتى يتَّصف في هذه الدار الدنيا بما اتصف به أهل الشقاء في الدار الآخرة، من الخشوع ذلةً وافتقاراً والبكاء دمعاً مدراراً والزفّرات المتصاعدة وتنضيج الجلود وتنضيق الكبود وتنغيص العيش النكيد. بهذا حلّيت أوليائي وأنبيائي لما سبق لهم عندي من السعادة بعد جهد ومكابدة وجوع وشدّ الأحجار على البطن! قاساه الرسول السيد المطيع، حتى فُتح له مع أصحابه في لبن وتمر دون لحم ولا خبز بُرّ، قال لأصحابه «إنكم لتسألن عن نعيم هذا اليوم!» فنعص عليهم عيشهم على قلته وأخذهم له على فاقة.

فأحوال الدارين معكوسة وصفاتهما منكوسة، «حُفّت الجنة بالمكاره» وهي ما يقاسيه المؤمن في الدنيا والكافر في العقبى «وحفّت النار بالشهوات» وهي ما يلتذّ به الكافر في الدنيا والمؤمن في العقبى. فانظري في أي حزب تكونين "خلقت الدنيا وخلقت لها أهلاً وجعلت النار لهم موطناً، وخلقت الآخرة وخلقت لها أهلاً وجعلت الجنة لهم مقيلاً ومحلّ رؤيتي مستقراً ومسكناً. ملكت الدنيا من سبقت عليه كلمتي بغضبي القاصم ولعنتي فطرده السابقة من باب رحمتي، وملكّت الآخرة كلّ خاشع أوّاه جدّ في مسراه وضمّر بطنه للسباق وخاف من حسرة الاستباق، فإنه طلق أنا غايته ورؤية كريم وجهي والتنزّه فيه نهايته.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ تسابقوا على نجب الأعمال وتحققوا بحقائق المقامات والأحوال، فوصلوا إلى مشاهدة الجلال والجمال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فهو بُراقه الذي أخرجته من عندي فإلي يُرجعه، لأن قولهم "بلى" عمل من الأعمال وعندي يجدونه إذا رجعوا من غير نقص ولا اختلال. "نُكّته بإشاراتها من خلف ستاراتها ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾:

قام السيد صلى الله عليه وسلم على أعواده ساعة إشهاده، فقيل له لما طُلب منه الاستصحاء "أنعمت فأبليت وبالغت في التكحيل لإزالة الرمّد فأعميت!" فاهتز قضيبُ البان عبدُ الله صلى الله عليه، وإن شئت قلت عبدُ الرحمن، وجال في ميدان

الاستخلاف وأراد الجنوح إلى فئة الائتلاف من فئة الاختلاف، ووقف في برزخ الاعتدال بين وزيرَي الجلال والجمال فـ﴿غِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ الخاشع حين وُصفَ غيرُه بالمتطاول لها وهو بالمتواضع، حكمةً أبدًا وسريرةً أخفها. وكيف ولا يُنال ما عنده إلا بتطاول الهمم وإبرار المقسم من أجل القسم؟!

فانجابت حتى صاروا منها في مثل الإكليل وهي هالة، لما كانوا أهلَ وجهٍ واحد في أصل السُّلالة. فلو رأوا من وراء ظهورهم وعن أيماهم وعن شمائلهم مثله لرأوها كالهالة أو كالكلّة. وقد ورد "انجابت انجياب الثوب" لإظهار ما في الغيب بانجياب الثوب وارتفاع الشكِّ والريب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ثم ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. أوّاه ثم أوّاه على أسرار تَظهر وأقمار تُزهر ولا عيون تبصر ولا ألباب تشعر!

غار صلى الله عليه وسلم أن يُتخذ من دون الله رِفاً وأن يُصمد إليه في الحوائج صمداً، لما كان الحق إلى جميع العبيد أقرب من حبل الوريد. ثم أسدل بيننا وبينه حجاب الرسالة وجعل بيدها مفاتيح الكفالة وكتب لهم بها مرسوم الوكالة، فنظرت القلوب إلى أيديهم وما برحوا وسط ناديتهم؛ فإذا انقضت الحوائج أسرعوا في الإدلاج. يا لها من حسرة ويا شؤمها من فترة حيث لم يقدروا قدره!

الواحد ضُمن له همّه، ومع تصحيحه لذلك فاتته يومه، فعاش على النصف من عمره؛ وبهذا زاد الصديق على عمره. والآخر أشرك في تحصيل الأبناء تعمير الوعاء. حتى كأن الجميع ليس لهم خالق وأن هذا الرسول هو الواحد الرازق. رضي الله عن الصديق الأكبر، صاحب السرِّ العلم الأزهر، في قيامه على منبر الطُّرفاء يوم الداهية الدهياء بموت سيد الأنبياء، محمد صلى الله عليه وسلم، أمين الأمانة وعلم الاهتداء، وقد ذهل من كان عندنا أقوى الأقوياء، فما ظنُّك بالضعفاء؟! وصال الرفيقُ الأسيف، على مذهب السيدة الحميراء لما كان يظهر عليه من شدة التلهُّف والبكاء، فكان أضعفهم عينا وأقواهم في صميم السويداء، فقال "أما بعد، فمن كان منكم يعبد

محمداً؛ فإن محمداً قد مات! ومن كان منكم يعبد الله؛ فإن الله حيٌّ لا يموت!" ثم تلا استشهاده على مقاتله الزهراء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ثم أردفها بقوله جل ثناؤه في الآية الغراء ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ثم خاطب جميع الخصماء.

فهذه القوة الإلهية من زُهد في القوت، وسوقه جميع ما ملكته يده الله ورسوله، فملكه مفتاح التابوت؛ فمن غيرته عليه وأمانته إخفاؤه إياه إلى يوم فقد صاحب رسالته. ففتح تابوت صدره وأبدى مكنون سرِّه ونبه بعلمه على مكانته من الله وقدره، وأقرَّ له الفاروق بالشرح لما بدت لعينه أعلام الفتح. ولم يزل الصديق مفتوحاً له قبل ذلك، من حين مُلك المفتاح ورسم ديوان الممالك، وإنما كان ينتظر رحلة العزيز السيد صلى الله عليه وسلم إلى حضرة المحبوب الرفيق الأعلى المالك.

فحلاه بزينته لما شاركه في نوره وطينته، ثم سلك في الهين واللين على مدرجته لما دعا له أن يكون معه وفي درجته، ثم أبدا له شاهداً بما كان عليه من الكتمان صوت تأنيسه في ليلة الإسراء بالجثمان، ثم أبان له برهان الموافقة بما ذكره عن نفسه صلى الله عليه وسلم وعنه إلى المقام من المسابقة؛ فسبق النبي وصلى الصديق، ولذلك قيل له هناك «قف، إن ربك يُصلي!» بصوت عتيق، فاستأنس وحنَّ من جهة إحساس البدن؛ وقد اتضحت أسرار ولمعت في غلبة هذا الوجد بوارق الأنوار.

فخرج إلى قيامه صلى الله عليه وسلم في اعتداله بين وزيريه جماله وجلاله، فأشار إلى وزيره الموهوب والعبوس القطوب أن "قد ظهرت سطوتك على الأعداء الأغمار بالهلاك والدمار، بين صياح رُعود ومُرَهَفَات بُروق وسِهَام أمطار؛ فأمر العسكر الجرَّار!" فجنح فقال "لم يهلك سُلطاني ولكن سَمَح!" فتبسَّم الجمال وقال "صدق يا رسول الله وصدقت، وبالحق نطق صاحبي، صلى الله عليك، وبه نطقت؛ فإننا تألفنا

من غير شتات وحيينا بلا تقدّم ممات؛ أنا أظهر لك صدق صاحبي فيما ادّعه وأبدي متنزّها عجيباً إلى مُقلتك النجلاء مما حواه غصنه ووعاه!"

فأرسلهما خديمين في العالم أمينين خليلين نديمين، وانصرف السيد إلى حضرة العين وغاب بلا كيف حيث لا أين. فلذلك لم يروا منه صلى الله عليه إلا صورته المشهودة والحركة المعروفة بيننا المعهودة، فقلنا ما شُهد به علينا في الأوراق وسارت به الركبان والرفاق وتلي في المكاتب والمنابر والمحاريب في جميع الآفاق: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟!﴾ عثرة لا تُطاق وصيحة ما لها من فوق يُعانيها قائلها عند السياق إذا بلغت النفس التراق وقيل "هل من راق؟" ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ وأيقن بالفراق. ولكل واحد منا في هذه العثرة حظُّ يراه إذا كان إلى ربه المساق؛ فعليكم بالإيمان الصّرف، على غاية الجلاء والكشف، وإلا فقد والله نُشِر الميثاق وأخذتم بضيق الخناق.

خرّج أبو داود في 'مراسيله' في هذا الباب عن شريك، يعني ابن أبي نمر، عن عطاء بن يسار أن رجلاً من نجد أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسول الله أجذبنا وهلكنا إن لم يُدركنا الله منه برحمة؛ فادعُ الله يغثنا!" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع الرجل وقد مُطروا فأحيوا عامهم ذلك، ثم رجع رجل بعد عام قابل فقال "يا رسول الله دعوتُ الله لنا فأحيينا عامَ الأول، فادعُ الله لنا!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَغِيثُ كَغَيْثِ الْكَفَّارِ؟! لا، ارجع!!»

فانظر ما أعظم ما تحويه هذه اللفظة من الأسرار؛ لما علم صلى الله عليه وسلم أن تتزل الأمطار عند الله بمقدار وأن ذلك لم تجر بنزوله الأقدار، ردّعه بقوله «أَغِيثُ كَغَيْثِ الْكَفَّارِ؟!» فأدرج له العلم في موعظة زاجرة وألصق استمرار الرخاء والسعة بالآمة الكافرة، وأن المؤمن يتقلب في نفسه بين شدة ورخاء وفي قلبه بين خوف ورجاء، ليهرب إلى التقليل والزّهادة من دام عليه في الدنيا في مأكله ومشربه نعيمه، وليتحقق أن ذلك النعيم عذابه وجحيمه. فليفرح المُقلُّ بفاخته ويستعمل نفسه في

الشكر عليها جُهدَ طاقته ويتنَّصُّ له عيشُ الغني فيؤجرَ في تنعُّصه ويحرِّضه على التروُّح بتبديد المال في ذات الله أو تنقُّصه.

فيا لها كلمة واحدة عمَّت القبضتين وانسحبت على الطائفتين؛ لقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب والحكم! استشهادي له في توقُّفه عن الإجابة ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ فتأمل يا وليي، سدّد الله نظرك، ما تنطوي عليه هذه الإشارات وما تتضمنه من المعارف والأسرار والمقامات هذه العبارات.

ولما سمعت النفس إیرادي لهذه الشذور وإبرازي هؤلاء الأسرار المخدّرات من خلف الستور، تيقّنت أنّها في تباب وأن عليّين إنما هي لأولي الأبواب. فألقت يد السمع والطاعة على مُلازمة السنّة والجماعة والإقرار بالفضل والسبق للمُتقدّم، وأن ذاك هو الإمام المعلّم. وأيقنت باقتراب الساعة ونفاد أيامها لظهور أشراتها وأعلامها، بقول من كرم هذه الأمة وفضلها «إن من أشرار الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أوّلها!»

وقد رأينا في هذه البلاد من هذه الشرائط كثيرا، وليتهم وقفوا مع سبّ أوّلهم من جنسهم ولا يتعدّون ذلك إلى ما هو أعظم منه. فوالله يا وليي لقد قرع سمع أخيك سبّ عيسى عليه السلام وسبّ بعض الصحابة الكرام وسبّ الله ذي الجلال والإكرام. وأما المدّعون في هذه الطريقة فقد قاربوا الخروج من الجماعة، بل خرجوا؛ فطائفة بلغني عنهم أنّهم قد استغنوا عن شفاعَةِ الرسول لما تحقّقوا به مع الحق من حقائق الوصال، ولو رأيت أحوالهم لرأيت تقيصَةَ الكون وما تسخن به العين.

وقال من تبرّز فيهم إماما تُحلُّ إليه الحُبا، وهو لا يعرف ما خُلق له ولا يُرتضى ويدّعي الكشف الأتمّ مع الحق، قال "إنّ الجنة لم تُخلق" هكذا أعطاه كشفه المكشوف وعقله السخيف المتلوف! وأما وليّك فسمع واحدا، وقد عاب عليه بعض أصحابه السماع، يقول "لمثلي يقال هذا؟ إن جبريل لا يُحسن يسمع مثلي ولا الملائكة!"

فَقَمْتُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَتَابَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَأَنَابَ. فَهَذِهِ قُلُوبُهُمُ الْحَاضِرَةُ وَوُجُوهُهُمُ
الْناظِرَةُ إِلَى رَبِّهَا النَّاظِرَةُ؛ بَلِ وَاللَّهِ وَجُوهَ بَاسِرَةٍ ﴿تَنْظُرُنَّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ!﴾
ثُمَّ أَعْرَفَ وَلِيِّيَ أَبْقَاهُ اللَّهُ أَنْ نَفْسِي الْخَبِيثَةُ بِطَانَةِ السَّوَاءِ لَمَّا قَرَعَ سَمْعَهَا أَخْبَارُ
هَؤُلَاءِ السَّادَةِ وَالْأُئِمَّةِ الْقَادَةِ، وَكَانَ لَهَا مِنْ صِعْرِهَا تَعَشُّقٌ بِحَدِيثِ أُوَيْسٍ، قَالَتْ لِي:
عَسَى تَقْصُرَ لِي مِنْ شَأْنِهِ بَعْضَ مَا وَصَلَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي أَهْجُ بِذِكْرِهِ، وَاطْوِ مَعِيَ بِسَاطَ
الْمَنَازِلَةِ وَسُدَّ بَابَ التَّمَثِيلِ وَالْمَحَاضِرَةِ، وَأَلْقِ مَا شِئْتَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَجَاهِدَةِ فَإِنِّي الْمُوَافِقَةُ
الْمُسَاعِدَةُ. فَشَكَرْتُ اللَّهَ عَلَى طَلِبِهَا الْإِخْتِصَارِ وَتَرْكِهَا التَّطْوِيلَ، وَعَلِمْتُ أَنَّهَا تَرِيدُ
سُلُوكَ سِوَاءِ السَّبِيلِ.

فَقُلْتُ لَهَا: نَعَمْ حَدَّثَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ يَحْيَى بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ قَالَ «لَيَصِلَنَّ مَعَكُمْ
غَدًا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ!» فَطَمِعْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَغَدَوْتُ فَصَلَّيْتُ خَلْفَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقَمْتُ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى انْصَرَفَ النَّاسُ وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ.
فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَسْوَدُ مَتَزَّرٌ بِخِرْقَةٍ مُرْتَدٍّ بُرْقَعَةً، فَجَاءَ حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ فِي
يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ "يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَدْعَ اللَّهُ لِي!" فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، وَإِنَّا لَنَجِدُ مِنْهُ رِيحَ الْمَسْكِ الْأَذْفَرِ! فَقُلْتُ "يَا رَسُولَ اللَّهِ
أَهُوَ هُوَ؟" قَالَ «نَعَمْ إِنَّهُ لَمَمْلُوكٌ لِبَنِي فَلَانٍ» قُلْتُ "أَفَلَا تَشْتَرِيهِ فُتُعْتِقَهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟" قَالَ
«وَأَتَى لِي ذَلِكَ إِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ مَمْلُوكِ الْجَنَّةِ؟ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنْ لِأَهْلِ
الْجَنَّةِ مَمْلُوكًا وَسَادَةً؛ وَإِنْ هَذَا الْأَسْوَدُ أَصْبَحَ مِنْ مَمْلُوكِ الْجَنَّةِ وَسَادَتِهِمْ. يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنْ
اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مَنْ خَلَقَهُ الْأَتَقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الْأَبْرِيَاءَ الشَّعْثَةَ رُؤُوسُهُمُ الْمَغْبِرَّةُ وَوُجُوهُهُمُ
الْخَمِصَةُ بِطُونُهُمْ إِلَّا مَنْ كَسَبَ الْحَلَالَ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُمْ
وَإِنْ خَطَبُوا الْمُنْتَعِمَاتِ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِنْ غَابُوا لَمْ يَفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَإِنْ
طَلَعُوا لَمْ يُفْرَحْ بِطَلْعَتِهِمْ وَإِنْ مَرَضُوا لَمْ يُعَادُوا وَإِنْ مَاتُوا لَمْ يُشْهَدُوا!»

قالوا "يا رسول الله كيف لنا برجل منهم؟" قال «ذاك أويس القرني» قالوا "وما أويس القرني؟" قال «أشهّل ذو صُهوْبة بعيدُ ما بين المنكبين مُعتدل القامة آدمٌ شديدُ الأدمة ضاربٌ بذقنه إلى صدره رامٌ ببصره إلى موضع سُجوده واضعٌ يمينه على شماله يتلو القرآن، يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يؤبّه له مَنزَر يزار صوف ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض معروف في أهل السماء؛ لو أقسم على الله لأبرّ قَسَمَه! ألا وإن تحت منكبه الأيسر لُمعة بيضاء. ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد "ادخلوا الجنة" ويقال لأويس "قف فاشفع!" فيشفعه الله عز وجل في مثل عدد ربيعة ومُضر. يا عُمرُ ويا عليّ إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه يستغفر لكما يغفر الله تعالى لكما!»

قال: فمكثنا يطُلبانه عشرَ سنين، لا يقدران عليه. فلما كان في آخر السنة التي هلك فيها عمر، في ذلك العام قام على أبي قُبيس فنادى بأعلى صوته "يا أهل الحجاج من أهل اليمن، أفيكم أويسٌ من مُراد؟" فقام شيخ كبير طويل اللحية فقال "إنا لا ندري ما أويس، ولكن ابنُ أخ لي يقال له أويس، وهو أخمَلُ ذَكَراً وأقلُّ قدرا وأهونَ أمرا من أن نرفعه إليك، وإنه ليرعى إبلنا؛ حقيرٌ بين أظهرنا!"

فعمى عليه عمرُ كأنه لا يريد، قال "أين ابنُ أخيك هذا، أبحرَ منا هو؟" قال "نعم" قال "وأين يُصاب؟" قال "بأراك عَرَفات" فركب عمر وعليّ سِراعا إلى عَرَفات، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة والإبل حوله ترعى، فشدّا حماريهما ثم أقبلا إليه فقالا "السلام عليك ورحمة الله!" فخفف أويسُ الصلاة ثم قال "السلام عليكما ورحمة الله وبركاته" قالوا "مَن الرجل؟" قال "راعي إبلٍ وأجيرُ قوم" قالوا "لسنا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجارة، ما اسمُك؟" قال "عبد الله" قالوا "قد علمنا أن أهلَ السموات والأرض كلهم عبيد الله، فما اسمُك الذي سَمَّتك أمُّك؟" قال "يا هذان ما تريدان إليّ؟" قالوا "وصف لنا محمد صلى الله عليه وسلم أويسا القرني، فقد عرفنا الصُهوْبة والشهولة، وأخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لُمعة بيضاء، فأوضحها لنا؛ فإن كان بك

فأنت هو!" فأوضح منكبه فإذا اللعة، فابتدراه يقبلانه وقالوا "نشهد أنك أويس القرني، فاستغفر لنا يغفر الله لك!"

قال "ما أخصُّ باستغفاري نفسي ولا أحدا من ولد آدم، ولكن من في البر والبحر في المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات. يا هذان قد أشهر الله لكما حالي وعرفكما أمري؛ فمن أنتما؟" قال علي "أما هذا فعمر أمير المؤمنين وأما أنا فعلي بن أبي طالب" فاستوى أويس قائما وقال "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وأنت يا ابن أبي طالب، فجزاكما الله عن هذه الأمة خيرا!" قالوا "وأنت فجزاك الله عن نفسك خيرا" فقال له عمر "مكأنك، يرحمك الله، حتى أدخل مكة فأتيك بنفقة من عطائي وفضل كسوة من ثيابي؛ هذا المكان ميعاد بيني وبينك!" قال "يا أمير المؤمنين، لا ميعاد بيني وبينك، لا أراك بعد اليوم تعرفني؛ ما أصنع بالنفقة، ما أصنع بالكسوة؟ أما ترى علي إزارا من صوف ورداء من صوف، متى تراني أخلقهما؟ أما ترى أن نعلي مخصوفتان، متى تراني ألبيهما؟ أما ترى أني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم، متى تراني أكلها؟ يا أمير المؤمنين إن بين يدي ويدك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا ضامرٌ مخفٌ مهزول، فأخف يرحمك الله!"

فلما سمع عمر ذلك من كلامه ضرب بدرته الأرض ثم نادى بأعلى صوته "ألا ليت أم عمر لم تلده! يا ليتها كانت عاقرا لم تعالج حملها! ألا من يأخذها بما فيها ولها؟!" ثم قال أويس بأعلى صوته "يا أمير المؤمنين، خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا هاهنا!" فولى عمر ناحية مكة وساق أويس إبله، فوافى القوم إبلهم وخلصوا عن الرعاية وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل.

قال المغيرة: كان أويس القرني ليتصدق بشيابه حتى يجلس غريانا لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة. ومما يؤيد هذا ما رويناه من حديث مُحارب بن دثار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مُصلاه من العُري، يحجزه إيمانه أن يسأل الناس؛ منهم أويس القرني» وقال عبد الله بن سلمة:

غزونا بأذريجان زمنَ عمر بن الخطاب ومعنا أويس القرني، فلما رجعنا مرض علينا. فحملناه فلم يَستَمِسِكْ فمات، فترلنا فإذا قبرٌ مَحْفُور وماء مَسْكُوب وكَفَنَ وَحَنُوط، فغَسَّلناه وكفَّناه وصلينا عليه ودفَّناه. فقال بعضنا لبعض "لو رجعنا فعَلَّمنا قبره" فرجعنا فإذا لا قبر ولا أثر!

وقال هَرَمُ بن حَيَّان: قَدِمْتُ الكوفةَ فلم يكن لي هَمٌّ إلا أويس أسأل عنه، فدفعته إليه وهو بشاطئ الفُرات يتوضأ ويغسل ثوبه. فعرَفْتُهُ بالنَّعت؛ فإذا رجل آدم مَحْلُوق الرأس كثُ اللحية مهيب المنظر. فسَلَّمْتُ عليه ومددت إليه يدي لأُصافِحه فأبى أن يَصافِحَنِي. فخنقنني العبرة لما رأيت من حاله فقلت "السلام عليك يا أويس، كيف أنت يا أخي؟" قال "وأنت فحيّاك الله يا هَرَمَ بنَ حيان، مَنْ دَلَّكَ عليّ؟" قلت "الله عزَّ وجل" قال ﴿سُبْحَانَ رَبَّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا﴾ قلت "يرحمك الله، من أين عرفت اسمي واسم أبي؟ فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني!" قال "عرف روحي روحك حين كلّمت نفسك نفسي، لأن الأرواح لها أنفُس كأنفُس الأجساد، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل!"

قلت "حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا لأحفظه عنك" قال "إني لم أدرك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لي معه صُحبة، وقد رأيتُ رجالاً رأوه وقد بلغني من حديثه كعُض ما يبلغكم، ولستُ أحبُّ أن أفتح هذا الباب على نفسي، لا أحبُّ أن أكون قاضياً أو مُفتياً؛ في نفسي شغل!" قلت "فأثُل عليّ آيات من كتاب الله أسمعهنّ منك وادعُ الله لي بدعوات وأوصني بوصية" فأخذ بيدي وجعل يمشي على شاطئ الفُرات ثم قال "قال ربي، وأحقُّ القول قولُ ربي عزَّ وجل، وأصدقُ الحديث حديثُ ربي عز وجل، وأحسنُ الكلام كلامُ ربي عز وجل: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وشهق شهقةً فأنا أحسبه قد غشي عليه ثم قرأ حتى بلغ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

ثم نظر إلي فقال "يا هرم بن حيان مات أبوك ويوشك أن تموت ومات أبو حيان، فإما إلى الجنة وإما إلى النار. ومات آدم وماتت حواء يا ابن حيان، ومات إبراهيم خليل الرحمن يا ابن حيان ومات موسى نجيّ الرحمن يا ابن حيان ومات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين يا ابن حيان، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات أخي وصديقي وصفيّ عمر؛ وأعمراه!" وذلك في آخر خلافة عمر رضي الله عنه فقلت "يرحمك الله إن عمر لم يمت!" قال "بلى إن ربي عز وجل قد نعاه لي وقد علمت ما قلت، وأنا وأنت غدا في الموتى!"

ثم دعا بدعوات خفاف ثم قال "هذه وصيّتي لك يا ابن حيان: كتاب الله عز وجل ونعيّ الصالحين من المؤمنين ونعيّ الصالحين من المسلمين، ونعيّ لك نفسي ونفسك! فعليك بذكر الموت، فإن استطعت أن لا يفارق قلبك طرفة عين فافعل. وأنذر قومك إذا رجعت إليهم، واكذح لنفسك. وإياك أن تُفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تشعر فتموت فتدخل النار يوم القيامة!"

ثم قال "اللهم إن هذا يزعم أنه يُحبّني فيك وزارني من أجلك، فأدخله عليّ زائراً في الجنة دارك دار السلام ورضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من شيء في الدنيا فاجعله في يسر وعافية، واجعله لما تعطيه من أنعمك من الشاكرين! أستودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك، لا أراك بعد اليوم تطلبني ولا تسأل عني، أذكرك وأدعو لك إن شاء الله. انطلق هاهنا حتى أنطلق أنا هاهنا!" فطلبت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ وفارقني يبكي وأبكي، ثم دخل في بعض السكك. فكم طلبته بعد ذلك وسألت عنه فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء. حدثنا بهذه الحكاية أحمد الشاهد بسنده عن أبي الضحاك الجرمي عن هرم بن حيان.

فهذا يا نفس من بعض أخبار أويس الذي أحبّته لله وفي الله، ولولا التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك قد قنعت بهذا القدر، فالتزمي طاعة الله وطاعة رسوله. فأسلمت إسلاماً

حديداً، الله يُثَبِّتُهَا عَلَيْهِ، وَأَخَذْتُ مِنْهَا الْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَالتَزِمْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ عَارِفَةً قَدْرَهُ وَمَا لَهَا فِي الْوَفَاءِ بِهِ وَمَا عَلَيْهَا فِي غَدْرِهِ. فَهَذَا يَا وَلِيِّي أَبَقَاكَ اللَّهُ مَا اتَّفَقَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي بِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللَّهُ.

ثُمَّ أَرْجِعْ مَعَ وَلِيِّي وَصَفِيِّي وَأَخِي فِي اللَّهِ تَعَالَى أَبِي مُحَمَّدٍ، وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاهُ، فَأَقُولُ: ثُمَّ أَمَا بَعْدَ يَا أَحْيَى، فَإِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ خَافُوا اللَّهَ عَلَى سَيِّئَاتِ النَّاسِ وَذُنُوبِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ، وَأَمَنُوهُ عَلَى ذُنُوبِهِمْ؛ وَلَيْسَ هَذَا فَعَلَ الرَّجُلُ الْحَازِمُ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ!﴾ وَأَقْرَبُ عَدُوٍّ لَكَ وَأَعْدَاةُ عَلَيْكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ حَبِيبِكَ، وَفِيهَا شُغْلٌ شَاغِلٌ لِلْعَاقِلِ. وَهَذَا الزَّمَانُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ زَمَانٌ شَرٌّ، قَلَّتْ فِيهِ لُقْمَةُ الْحَلَالِ وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّرَّةُ وَالْكَلْبُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ؛ فَلَا بَطْنَ يَشْبَعُ وَلَا نَفْسَ تَقْنَعُ وَلَا عَيْنَ تَدْمَعُ وَلَا دُعَاءَ يُسْمَعُ. فَلَمَّا قَلَّ الْحَلَالُ، لَوْ وَقَعَ التَّعَفُّفُ مِنَ الْمُرِيدِ وَأَخَذَ الْعَدَاءُ عِنْدَ الْإِضْطِرَارِ لَكَانَ بَعْضُ شَيْءٍ يَكْفِيهِ.

وَأَبَشِّرْكَ يَا وَلِيِّي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، أَيْ جَرَّبْتَ أَحْوَالِي فِي هَذِهِ الْمَطَاعِمِ مِنْ بَابِ الْمَغْرِبِ إِلَى بَابِ مَكَّةَ، فَمَا دَخَلَ فِي بَطْنِي أَخْلَصُ مِنْ طَعَامِكَ؛ كُنْتُ أَجِدُ لَهُ مَا لَا يُمَكِّنُ وَصْفُهُ! وَذَلِكَ لَطِيبُ التَّفُوسِ وَعَدَمُ تَعَلُّقِ خَاطِرِكَ بِهِ، إِلَّا فِي وَقْتٍ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ وَابْنِ الْمُرَابِطِ وَتَعْرِفُ سَبَبَهُ، وَهَذَا أَعْجَبُ مَا يُسْمَعُ فِي هَذَا الْبَابِ. وَلَهُ أَصْلٌ يَسْتَنْدِ إِلَيْهِ فِي اللَّحْمِ الَّذِي تُصَدِّقُ بِهِ عَلَى بَرِيرَةَ، وَهُوَ حَرَامٌ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا أَهْدَتْ مِنْهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَهُ حَلَالًا مَحْضًا وَقَالَ «هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، وَلَنَا هَدِيَّةٌ!» فَالْتَقَى بِأَلِّكَ يَا وَلِيِّي وَأَحْضَرُ ذَهْنِكَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَإِنَّهَا لَطِيفَةٌ، وَقَدْ قَصَدْتُكَ بِهَا مُتَحَفًّا؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ التُّحَفِ، لِأَنَّهَا تُعْطِيكَ مِنْ أَسْرَارِ وَضْعِ الشَّرْعِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي عِبِيدِهِ عِلْمًا كَثِيرًا.

روح القدس

انتهى الجزء الثاني

ولقد لقينا من المشايخ والإخوان والنساء ما لو دَوَّنت أحوالهم وسُطرت كما
سُطرت أحوالُ مَنْ تقدَّم لرأيت الحالَ الحالَ والعينَ العينَ في الأعمالِ والجدِّ
والإشارات وصحَّة القصد. فيا وليي:

تعال نُقِمْ مَأْتَمًا للفراق وندُب إخواننا الظاعنينَا

وأنا أنشُر لك من بعض أحوال مَنْ لقيت:

فمنهم، وهو أوَّل من لقيته في طريق الله، أبو جعفر أحمد العريبي رضي الله
عنه. وصل إلينا إلى إشبيلية في أوَّل دخولي إلى معرفة هذه الطريقة الشريفة، فكنت
مِمَّن سارع إليه. فدخلتُ عليه فوجدت شخصًا مُستهترًا بالذِّكر، فتسمَّيت له وعرف
حاجتي منه فقال لي "عزمتَ على طريق الله تعالى؟" فقلت له "أما العبد فعازم والمثبَّت
الله" فقال لي "سُدَّ الباب واقطع الأسبابَ وجالسِ الوهَّاب؛ يكلِّمك من دون
حجاب!" فعملت عليها حتى فُتح لي.

وكان بدويًّا أميًّا لا يكتُب ولا يحسُب، وكان إذا تكلم في علم التوحيد
فحسبُك أن تسمع. كان يقيد الخواطر بهمته ويصدع الوجود بكلمته؛ لا تجده أبدا
إلا ذاكرًا على طهارة مستقبل القبله، أكثرَ دهره صائمًا.

أسرَّته الإفرنج وكان قد أعلم بذلك فقال لأهل القفر "في غدٍ يؤخذ الكلُّ
أسرى!" فصبَّحهم العدوُّ فأخذهم عن آخرهم. فأكرم مَثواه ونُظِّفت له دار حسنة
وخُدِّم بها، ثم تقاطع مع العَلَج الذي كان عنده، أظنَّ على خمسمائة دينار. فجاء عندنا
فقليل له "نجمع لك من شخصين أو ثلاثة؟" فقال "لا إنما أريدها من أشخاص كثيرة،
لو قدرْتُ أن آخذ من كلِّ إنسان ذرَّةً ذرَّةً فعلت؛ فإن الله تعالى أخبرني أن: كلَّ
نسمةٍ أعطت فيها شيئًا عُتقت من النار؛ فاستغنم الخيرَ لأمة محمد!"

ومن أخباره أنه قيل له وهو بإشبيلية عندنا "إن أهل قصر كُتامة يحتاجون إلى المطر، فسر إليهم استسقي لهم حتى أسقيهم!" فخرج لذلك وخرج معه خادمه محمد، وبيننا وبينهم البحر وميسرة ثمانية أيام، فقال له بعض أصحابه "أدع الله لهم من هنا" قال "أمرت بالخروج إليهم!" فخرج من عندنا. فلما وصل قصر كُتامة وأشرف عليه مُنع من دخوله، فاستسقى لهم وهم لا يشعرون، فسقاهم الله في الحين، فرجع من ذلك الموضع ولم يدخل البلد حتى وصل إلينا. قال لنا محمد خديمه الذي مشى معه: لما سقاهم الله ونزلت الأمطار كان العيث يتزل عن يميننا وعن يسارنا وأمامنا وخلفنا، بجذائنا ونحن نمشي، لا يصيبنا منه شيء. فقلت للشيخ "عز علي حيث لم تُصبك رحمة الله!" فصاح وقال "فُزت بها يا محمد، يا حسرة لو تذكرتها هُنالك!"

ودخل عليه رجل ومعه ابنته، وأنا إلى جانبه جالس، فسلم عليه وقال لابنه "سلم عليه!" وكان الشيخ قد ذهب بصره، فقال له الرجل "يا سيدنا، إن ابني هذا من حملة القرآن؛ يحفظه!" فتغير الشيخ وصاح وطراً عليه حال وقال "القدم يحمل المُحدث؟! القرآن يحمل ابنك ويحملنا، ويحفظ ابنك ويحفظنا!"

فهذا كان من حضوره رضي الله عنه. وكان قوياً في دين الله، لا تأخذه في الله لومة لائم. كنت إذا دخلت عليه يقول "مرحبا بالابن البار! كلُّ ولدي نافق عليّ وححد نعمتي إلا أنت، فإنك مُقرُّ بها مُعترفٌ بارٌّ بجاني؛ لا أنساها الله لك!"

سألته ما اتفق له مع الله تعالى في أوّل بدايته فقال "كان قوتُ أهلي في السنة ثمانية أعدل تينا -والعدل فيه مائة رطل- فلما جلستُ مع الله في خلوتي صاحت عليّ المرأة وسبتني وقالت لي "قُم واحدُم وسُق ما يقوم بأولادك لعامهم!" فشوّشت عليّ خاطري، فقلت "يا ربّ، هذه تحول بيني وبينك ولا تزال تتبّعني؛ فإن كنتَ تريدني لمُجالستك فأرحني من همّها، وإن كنتَ لا تريدني فعزّني!" فناداني الحقُّ في سرّي "يا أحمد أقعد معنا؛ فما يذهب النهارُ حتى نأتيك بعشرين عدلاً تينا، قوتَ عامين ونصف، وأزید وأزید؛ اجلس معنا ولا تبرح!" فلم تكن إلا ساعة وإذا بصارخ وعلى

عُنُقَهُ عِدْلٌ مِنْ تَيْنِ هَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي الْحَقُّ "هَذَا وَاحِدٌ مِنْ عَشْرِينَ!" فَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ حَتَّى كَمُلَ عِنْدِي عِشْرُونَ عِدَلًا، فَسُرَّتِ الْمَرْأَةُ وَالْأَطْفَالُ وَشَكَرْتَنِي الْمَرْأَةُ وَرَضِيَتْ عَنِّي.

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَحِمَهُ كَثِيرَ التَّفَكُّرِ، مَبْسُوطًا مَعَ الْحَقِّ فِي عَمُومِ أَحْوَالِهِ. دَخَلْتُ عَلَيْهِ آخِرَ زُورَةٍ رَأَيْتُهُ فِيهَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَعِيَ جَمَاعَةٌ، فَوَجَدْنَاهُ قَاعِدًا فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، وَقَدْ أَرَادَ بَعْضُ الْجَمَاعَةِ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَإِذَا بِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ "خُذُوا مَسْأَلَةً، وَقَدْ رَمَيْتُكَ بِهَا يَا أَبَا بَكْرٍ! -وَأَشَارَ إِلَيَّ-: لَمْ أَزَلْ أَتَعَجَّبُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيفِ "حَتَّى يَفْتَنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ" وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَزَلْ بَاقٍ؛ فَأَيْشَ قَالَ؟ أَجِيبُوا!" فَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَمَاعَةِ مَنْ أَجَابَهُ. فَعَرَضَ عَلَيَّ الْجَوَابَ، فَحَضَرْتَنِي نَفْسِي بَعَثُورِي عَلَى وَجْهِ الْمَسْأَلَةِ دُونَهُمْ، فَلَمْ أَتَكَلَّمْ، فَإِنِّي كُنْتُ شَدِيدَ الْقَهْرِ لِنَفْسِي فِي الْكَلَامِ، وَعَرَفَ مِنِّي الشَّيْخُ ذَلِكَ فَلَمْ يُعِدْ عَلَيَّ.

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَتَجَرَّدُ مِنْ ثَوْبٍ لِنَوْمٍ وَلَا يَهْتَرِّ فِي سَمَاعٍ، فَإِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ تَقَصَّفَ وَاضْطَرَبَ وَتَصَدَّعَتْ أَرْكَائُهُ. وَصَلَّيْتُ مَعَهُ الصَّبْحَ فِي دَارِ وَلِيِّي وَصَفِيِّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ الْخِيَاطِ الْمَعْرُوفِ بِالْعَصَادِ وَأَخِيهِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْحَرِيرِيِّ، فَقَرَأَ الْإِمَامُ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ غَبِثُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقَارِئِ وَمَا سَمِعْتُ شَيْئًا، وَرَأَيْتُ شَيْخَنَا أَبَا جَعْفَرَ الْمَذْكُورَ وَهُوَ يَقُولُ لِي "الْمِهَادُ الْعَالَمُ وَالْأَوْتَادُ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْمِهَادُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْأَوْتَادُ الْعَارِفُونَ، وَالْمِهَادُ الْعَارِفُونَ وَالْأَوْتَادُ النَّبِيُّونَ، وَالْمِهَادُ النَّبِيُّونَ وَالْأَوْتَادُ الْمُرْسَلُونَ، إِلَيْهِ مَاذَا!.." وَذَكَرَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْأَوَّلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَ، فَرُدَدْتُ إِلَيْهِ وَالْإِمَامُ يَقْرَأُ ﴿وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ فَلَمَّا فَرَعْنَا مِنَ الصَّلَاةِ سَأَلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ خَطَرَ لَهُ فِي تِلْكَ الْآيَةِ مَا شَهِدْتُهُ.

وَأَضْجَعَهُ إِنْسَانٌ لِيَذْبَحَهُ، وَالسَّكِّينَ فِي يَدِهِ وَالشَّيْخَ يَمُدُّ لَهُ عُنُقَهُ، وَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ لِيَأْخُذُوهُ فَقَالَ "أَتْرَكُوهُ يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ!" فَكَانَ يَأْخُذُ السَّكِّينَ لِيَمْرَّ بِحَدِّهِ

على حُلُومِهِ فيحوِّله الله في يده، حتى رمى به وترامى بين يديه تائباً! ولولا التطويل لأظهرنا من أمره، وأمر غيره ممن لم نذكره عجائب، من إشاراته وما وقع بيننا وبينه من المسائل الإلهية في المواقف وغيرها، ولنا فيه آيات لا أذكرها الآن.

ومنهم رضي الله عنهم شيخنا وإمامنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي القيسي رضي الله عنه. صحب أبا مدين ولقي رجالا بهذه البلاد. سكن ديار مصر مدة وتأهل بمدينة الإسكندرية. رغب في مصاهرته الحافظ أبو طاهر السلفي. عرضت عليه ولاية فاس فأبى. له في الطريق قدم راسخة. كان أبو مدين، لسان هذه الطريقة ومحييها ببلاد المغرب، يقول في هذا أبي يعقوب "هو مثل المرسى القوي للسفينة!" كان جزلاً كثير الأفراد، يخفي صدقته، يكرم الفقير ويذل الغني ويسارع في قضاء حاجة الفقير بنفسه. دخلت تحت أمره فربى وأدب، فنعيم المؤدب ونعم المربي! رآه صاحبنا عبد الله بدر الحبشي وبات عنده، سمعته يقول "إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين وألقاه في عليين في لحظة واحدة!" كان كبير الهمة، الغالب عليه طريق الملامية. قلما تلقاه إلا مقطب الوجه، فإذا أبصر فقيراً تبرق أسارير وجهه. رأيته يدي الفقير من نفسه حتى يجلسه على فخذه، يخدم أصحابه بنفسه. رأيته في النوم، وقد انشق صدره وفيه مصباح يضيء كأنه الشمس، يقول "يا محمد هات!" فأتيه بجفان بيض كبار فيتقيأ فيها لبناً حتى يملأها ثم يقول "اشرب!" فأشرب جفنة ما دام يملأ أخرى. جل ما أنا فيه من بركته وبركة أبي محمد الموروري، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

أول مسألة ألقاها عليّ في أول ساعة رأيته فيها، وقد أقبل عليّ بكليته، أن قال "ما الذنب الذي يأتيه المار بين يدي المصلي حتى يودّ أن يقف أربعين خريفاً؟" فأجبتة على ذلك على حد ما وقع له، فسرّ بذلك.

وكنْتُ إذا قعدتُ بين يديه وبين يديّ غيره من شيوخنا أرعدَ مثلَ الورقة في يومَ الريحِ الشديدة، ويتعثّر نُطقي وتنخدرِ جوارحي حتى يَعرفَ ذلكَ في حالي، فيؤنّسني ويطمع أن يُبسّطني، فلا يزيّدني ذلكَ إلا مهابةً وإجلالا.

وكان رضي الله عنه يحبّني ولا يُظهر ذلكَ لي، ويقربُ غيري ويطرُدني ويصوّبُ كلامَ غيري، ويؤبّخي في المحافل والمجالس ويشتمني. حتى كان أصحابي الذين كانوا معي ينسبونني إلى قِلّةِ الهِمّة، وهم معي تحت نظره وفي خدمته. فما برع من تلك الجماعة غيري ولله الحمد، وكان الشيخ رضي الله عنه يقول ذلك.

ومما شاهدته منه رضي الله عنه، ولم أكن قطّ رأيتُ 'رسالة القشيري' ولا غيرها ولا كنت أعرفُ أن لأحد في هذه الطريقة تصانيف ولا كنت أدري لفظة 'التصوّف' على ماذا تنطلق، فركبَ يوما فرسه وأمرني وآخر من أصحابه أن نخرج إلى 'المُنت بار' وهو جبل عالٍ على فرسخ من إشبيلية. فخرجت أنا وصاحبي عند فتح باب المدينة وفي يد صاحبي 'رسالة القشيري' وأنا لا أعرف ما القشيري وما رسالته، فصعدنا الجبل فوجدناه قد سبقنا وغلّامه مُمسكٌ فرسه. فدخلنا مسجدا في أعلى ذلك الجبل فصلينا، واستدبر القبلّة وأعطاني الرسالة وقال لي "اقرأ!" فلم أقدر أن أضُمّ كلمة إلى أخرى والكتابُ يسقط من يدي من الهيبة، فقال لصاحبي "اقرأ" فأخذه صاحبي وقرأه، وتكلّم عليه الشيخ.

فلم يزل كذلك حتى صلّينا العصر، فقال الشيخ "نزل إلى المدينة" فركب فرسه وألزم يدي ركبته، فجعل يحدثني بفضائل الشيخ أبي مدين وكراماته، وأنا قد فنيت في كلامه فلا أحسُّ بنفسي، وأرفع إليه وجهي في أكثر الأوقات فأراه ينظر إلي ويتبسّم، ويهمز فرسه فيُسرع وأُسرع معه. ثم وقف وقال لي "انظر ما تركتَ خلفك!" فنظرتُ فرأيت الطريقَ الذي مشيت عليه كلّ شوكا يصل إلى مَعقِد الإزار وشوكا آخر منبسّطا في الأرض، قال "انظر إلى قدميك" فنظرتُ إلى قدميّ فلم أرَ بهما

أثرا، قال "انظر إلى ثوبك" فنظرت فلم أر أثرا، قال "هذا من بركة ذكرنا أبا مدين؛ الزم الطريق يا بُنيّ تُفلح!" وهمز فرسه وتركني.

أخذت منه مسائل كثيرة ورأيت عنده ما لم أر من غيره؛ إذا أعطى المُجاهدة للمريد يعملُها معه، وكذلك للثنتين والثلاثة، يعمل مع هذا ومع هذا، فتراه لا يفتُر. قعدت معه مرة بعد العصر فرآني أتقلق للخروج، فقال لي "ما شأئك؟" فقلت "عليّ أربع حوائج أريد أن أقضيها ولي أيام أروم قضاءها وأتعمل فيها، ولا أجد الأشخاص الذين الحوائج بأيديهم!" فتبسّم وقال لي "إن تركتني ومشيت، ما تنقضي لك منها حاجة؛ فاقعد معي أذكر لك من أحوال أبي مدين، وأنا أضمن قضاءها" فقعدت. فلما حان وقت المغرب قال لي "أخرج الساعة إلى منزلك، فإنك لا تصلّي المغرب حتى تنقضي الحوائج كلها!" فخرجت والشمس قد غربت فوصلت إلى منزلي ومؤذن المغرب يؤذن؛ فوالله ما أحرمت بالصلاة للمغرب حتى انقضت حوائجي!

وكان من صدقي في صحبتته أي أتمناه بالليل في بيتي لمسألة تخطر لي، فأراه أمامي فأسأله ويحييني ثم ينصرف، فأخبره بذلك بكرة. ويتفق لي معه هذا بالنهار في منزلي إن اشتهيته. ومناقبه وكراماته وإشاراته أكثر من أن تُحصى، فلنضرب عنها في هذه الرسالة صفحا. ومن شعري فيه حين فارقت وأنا متوجه إلى مراكش وهو بسلا قاطن:

سيدنا يوسف بن يخلف	إن قيل من في الوجود أشرف؟
أرق شخص قلبا وألطف	رب المعالي قلب المعاني
أعظمهم رأفة وأعطف	أكرم من في الوجود كفا
أشدّهم سطوة وأعنف	أثبتهم في النّزال جأشا
أشهدهم للعلا وأكشف	أكبرهم همّة وحالا
أشرحهم باطنا وأعرف	أوسعهم في العلوم باعا
أرفعهم نصبة وأشرف	أكملهم نسبة ونعنا

أطوّلهم في العُلا ذراعاً أعلاهم غاية وأوقف
أطفهم في الغُيوب مَعْنَى أوضحهم حِكْمَةً وأوصف
قد يُكسّف البدر في عُلاه وبدر مَولاي ليس يُكسّف

والقصيدة طويلة أودعتها كتاب 'إنزال الغيوب على مراتب القلوب' فيما لنا في هذه الطريقة من نَظم ونثر خاصّة.

أفادني شيخنا هذا مسألة الوصال و«أنا سيّد ولد آدم» و«آدم فَمَن دونه تحت لوائي» و«التدبير نصف العيش» و«إذا أحبّ الله العبد ابتلاه» و«قلب القرآن يس»، ولم يسبقه أحد إلى هذه المسألة في بلادنا، وغير ذلك مما لا أذكره الآن.

ومنهم رضي الله عنهم صالح العدوي. كان بالله عارفا ومع الله في كل حالة واقفا، تاليا لكتابه العزيز آناء الليل وأطراف النهار. لم يتخذ مسكنا قط ولا تداوى قط؛ كان يعمل على مقام «السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب». كان لا يكلم أحدا ولا يجالس.

يأتي عليه أوقات يدخل في صلاة سُبحة الضحى، فلا يزال واقفا في الركعة الأولى حتى يقال له "قد زالت الشمس!" كان إذا قام إلى الصلاة في اليوم الشديد البرد يُلقي عنه ثيابه حتى يبقى في قميص واحد وسراويل وعرقه يتصبّب كأنما هو في دِمَاس. له في صلاته زئير وهممة لا يُفقه ما يقول. لا يدّخر شيئا لغد ألَبَّة ولا يقبل ما لا يحتاج إليه لا لنفسه ولا لغيره. كان يأوي ليله إلى مسجد أبي عامر الرُّطندالي المقرئ. صاحبته سنين، أكاد أعدّ كلامه معي من قلته.

كان في بعض السنين يُفقد من البلد إذا قُرُب عيد الأضحى، فأخبرني فقيه شاهد من شهود البلد أنه يحضر المَوسِم بعرفات؛ أخبره بذلك مَنْ شاهدته. كان له بنا تعلقٌ وإلى جهتنا تأمل، انتفعنا به. أخبرني بأمور في حقي مما يتفق لي في المستقبل، فرأيتها كلّها ما غادرت منها كلمة واحدة! خدمه أبو علي الشكّاز في مرضه. لم يزل

باشبيلية على هذه الحالة أربعين سنة حتى مات بها، فغسلناه ليلاً وحملناه على رقابنا إلى مقبرته، وتركناه وانفصلنا عنه حتى صُلِّي عليه ودُفِنه الناس. لم أر بعده على حاله مثله، كانت حالته تشبه حالة أويس، وله أخبار كثيرة يطول ذكرها.

ومنهم أبو عبد الله محمد الشَّرَفِي رضي الله عنه. كان يُلازم الصلوات الخمس بجامع العُدَيْس باشبيلية. كان يعيش من الأفيون، يخرج إليه في وقته فيجمعه، فيشتره منه قومٌ معلومون بالورع وأنَّ المال الذي بأيديهم حلال. تورَّمت قدماه من طول القيام، كان إذا وقف في الصلاة تتحدَّر دموعه على بياض لحيته كأنها اللؤلؤ. سكن موضعاً نحواً من أربعين سنة ما أوقد فيه سراجاً ولا ناراً؛ بالغ في العبادة جهده.

لقيني يوماً وأنا واقف على مَعْتَوْه عندنا في جملة الناس، فلم نشعر به حتى أخذ بأذني وأخرجني من الحلقة وقال لي "أنت تفعل هذا؟!" فحجِلْتُ ودخلت معه الجامع. كان يخبرني بالشيء قبل كونه فيكون كما يخبرني. لم يتخذ قط في المسجد موضعاً مُعَيَّناً ولا صلى قط في موضع واحد من المسجد صلاتين.

لا يجرؤ أحد عليه أن يقول له "أدع لي!" فالذي يريد أن ينتفع بدعائه يُراقبه إذا دخل المسجد، أين يصلي منه، فيُحرِّم بالصلاة إلى جانبه. فإذا قعد، يدعو صاحب الحاجة بما يريده ويُعلن، فيقول الشيخ "آمين" خاصة؛ هكذا كانت دعوته. وسألته أنا في الدعاء فدعا لي، وقد بدأني بالدعاء ولله الحمد، وكلَّمَنِي قبل أن أكلمه. فإني كنت أهأبه، وانتفعت به وعانيت من بركاته.

إنه لما اقترب موته أخلَّى مسكنه وقال "أريد سفراً" فخرج إلى القرية التي كان منها في الشَّرَف على فرسخين، فلما وصل إليها مات بها رحمه الله تعالى.

ونظر يوماً إلى غلام صغير على رأسه مِكْتَل فيه رازيانج، وراه متحيراً فأشفق عليه. فاستدعاه والناس يرونه فقال "ما شأئك يا ولدي؟" قال "يا عمّ مات أبي وترك أولاداً صغاراً، وليس لنا شيء؛ فأصبحنا يومنا هذا وما عندنا ما نأكل! وكان عند

والدتي هذا الرازيانج فقالت: يا بُنَيَّ خُذْهُ وَبِعْهُ وَسُقْ لَنَا بِهِ قُوَّةَ الْيَوْمِ إِنْ كَفَى " فَبَكَى
الشيخ، وأدخل يده في المِكتل وأخذ منه حَبَّاتٍ وقال "هذا شيء طَيِّب! يا صبي، قُلْ
لَأُمِّكَ: عَمِّي الشَّرَفِي أَخَذَ مِنْهُ قَلِيلًا. تَجْعَلُنِي مِنْهُ فِي حِلٍّ!" فَأَخَذَ بَعْضُ التُّجَّارِ المِكتل
بالرازيانج من الصبي وقال "شيءٌ أَخَذَ مِنْهُ هَذَا الشيخ حَلَّتْ فِيهِ الْبَرَكَةُ!" فَمَشَى إِلَى أُمِّ
الصبي ودفع لها في المِكتل سَبْعِينَ دِينَارًا مُؤَمَّنَةً. وَإِنَّمَا قَصَدَ الشيخ هَذَا رَحْمَةً بِهِمْ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَبُو يُحْيَى الصَّنْهَاجِي. كَانَ قَدْ عَمِيَ وَقَدْ أَسَنَّ. كَانَ
يُرْتَّبُ بِمَسْجِدِ الزَّيْبِيدِيِّ حَتَّى مَاتَ، وَدَفِنَاهُ بِالْمُنْتِ بَارٍ وَبَنَتْنَا عَلَيْهِ. عَاشَرْتَهُ فَرَأَيْتُهُ مُجْتَهِدًا
فِي الْعِبَادَةِ، وَلَهُ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي الرِّيَاضَاتِ وَالْإِشَارَاتِ. كَبِيرُ الشَّأْنِ، مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ يَقْعُدُ
إِلَّا عَلَى كُرْسِيِّ صَغِيرٍ.

مَاتَ عِنْدَنَا بِإِشْبِيلِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَظَهَرَتْ لَهُ كَرَامَاتٌ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ فَإِنَّ الْجَبَلَ الَّذِي
دَفِنَاهُ فِيهِ عَالٍ لَا يَخْلُو عَنْ الرِّيحِ أَبَدًا، فَسَكَّنَ اللَّهُ الرِّيحَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ
وَبَاتُوا عَلَى قَبْرِهِ يَقْرَءُونَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ. فَلَمَّا نَزَلَ النَّاسُ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى عَادَتِهَا. كَانَتْ
صُحْبَتِي إِيَّاهُ شَهْرًا قَبْلَ مَوْتِهِ. كَانَ مِنْ أَهْلِ السِّيَاحَاتِ مُلَازِمًا لِلْسَّوَاكِلِ مُؤَثِّرًا
لِلخَلْوَةِ.

وَمِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَبُو الْحَجَّاجِ يَوْسُفُ الشُّبْرُيْلِيِّ، مِنْ شُبْرُيْلٍ قَرْيَةٍ بِالشَّرَفِ
عَلَى فَرْسَخَيْنِ مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ، كَانَ أَكْثَرَ إِقَامَتِهِ بِالْبَادِيَةِ. صَحِبَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُجَاهِدِ.
كَانَ يَعِيشُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ. دَخَلَ الطَّرِيقَ قَبْلَ الْحُلُمِ وَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ. كَانَ ابْنُ
الْمُجَاهِدِ، إِمَامٌ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِبِلَادِنَا، يَقُولُ "الْتَمَسُوا الدُّعَاءَ مِنْ أَبِي الْحَجَّاجِ الشُّبْرُيْلِيِّ!"
وَكَانَ يُكَبِّرُهُ إِذَا زَارَهُ.

أخبرني أبو الحجاج هذا بنفسه قال: كانت زيارتي لابن مجاهد شيخنا كل يوم جمعة، فجيئته أزوره يوم جمعة على عادتي فوجدته واقفا على البناء، بيني حائط داره التي يسكن بها وكان قد تهدم، فبناه ليستريح عياله. فسلمت عليه فقال لي "خالفت عادتك يا أبا الحجاج، جئت يوم الخميس!" فقلت له "بل هو الجمعة" فضرب يداً على يد وصاح "أواه! هذا ما فعل الضروري الذي لا بُدَّ منه؛ فكيف لو زدنا؟! وناح وبكى على نفسه وتحسّر على وقته. فكان أبو الحجاج متى ذكر لي هذه الحكاية يبكي ويقول "هكذا تكون الرجال؛ ينوحون على فوات حظوظهم من الحضور مع الله!"

كان شيخنا هذا أبو الحجاج كبير الشأن، لم يزل يأكل من عمل يده حتى ضعف عن العمل، فصار يأكل من الفتح. وكان لما أسنَّ وثقل عن الحركة يبكي ويقول "يا بُني، فتح الله عليّ باب قصد الناس إليّ وزيارتهم، وعرض بي للفتن! ومن أنا؟! ويا ليتني سلّمت! ووددت أني أجد قوة حتى أزور الناس في ديارهم، ولا يجيئون إلي!"

وكان رحمةً للعالم، كان إذا دخل عليه عمّال السلطان يقول لي "يا بُني هؤلاء هم أعوان الحق المشتغلون بأسباب العالم، ينبغي للناس أن يتفرغوا للدعاء لهم أن يُجري الله الحق على أيديهم ويعينهم!" وكان يقبل من السلطان.

ما دخل عليه أحد قطّ وعنده في بيته ما يؤكل إلا يجعله أمام الداخلين، كثروا أو قلّوا وكثر الطعام أو قلّ، لا يترك شيئاً يكون له ألبته. ولقد رأيته ودخل عليه جماعة فقال لي "يا بُني أنزل إليهم المِكتل!" فأنزلته فلم أجد فيه غير ملء الكف حُمصاً، فجعلته بين أيديهم فتناولوا منه. رأيته له بركات كثيرة؛ كان ممّن يمشي على الماء.

كان له بداره بالقرية بئر يستقي منها لوضوئه، فرأينا بجانب البئر شجرة زيتون قد علت وأورقت وحملت، جسّمها غليظ، فقال صاحبي "يا سيدنا لم غرست هذه الزيتون في هذا الموضع وضيّقت بها على البئر؟" فالتفت إلينا ونظر، وكان قد انحنى ظهره من الكبر، فقال "إني رُبيت في هذه الدار من صغري، ووالله ما رأيته قطّ هذه

الزيتونة إلا الآن!" فكان بهذه المثابة من الاشتغال بقلبه. ما دخلت فطً عليه، لا أنا ولا غيري، إلا وجدته قارئاً في المصحف؛ لم يُمسك كتاباً غير المصحف حتى مات. وكانت له هرة سوداء، لا يستطيع أحد أن يمسكها ولا يلقي يده عليها، وكانت ترقد في حجره. فكان يقول لي "جعل الله لي في هذه الهرة تمييزاً للأولياء؛ فهذا الفرار الذي ترى فيها ما هو سُدى جملة، فقد جعلها الله تأنس بالأولياء!" فشهدتها مراراً عنده؛ يدخل إنسان فتحك خدّها في رجله وتتعلق به، ويدخل آخر فتفر منه. ولقد دخل عليه شيخنا أول ما دخل عليه، نعي أبا جعفر العريبي رحمه الله تعالى الذي ذكرته أولاً، وكانت الهرة في البيت الآخر، فخرجت من البيت ونظرت إلى شيخنا أبي جعفر قبل أن يجلس، وشيخنا أبو الحجاج يقول له "اجلس!" فوثبت وثبةً إلى صدر الشيخ أبي جعفر وفتحت يديها على عنقه، فعانقته ومرّغت وجهها على لحيته. فقام إليه أبو الحجاج حتى أجلسه ولم يقل له شيئاً، فلم تزل عنده حتى خرج من عنده. فأخبرني أبو الحجاج أن ذلك الفعل ما رآها فعلته قط مع غيره.

وجاءه رجل وأنا عنده في جماعة، وفي عينيه وجع شديد، يصيح منه مثل النفساء. فدخل عليه وقد شقّ على الناس صياحه، فاصفرّ الشيخ وارتعد. فرفع يده المباركة ووضعها على عينيه، فسكن الوجع من حينه واضطجع الشخص كأنه الميت. ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس. وكان له صاحب من صالحين مؤمنين الجِنّ يُلازمه أبداً، لا يرح من عنده.

دخلت عليه يوماً مع شيخنا أبي محمد الموروري رضي الله عنهما، فقلت "يا سيدنا هذا من أصحاب أبي مدين" فتبسّم الشيخ وقال "عجب، أمس كان عندنا أبو مدين، رضي الله عنه؛ نعم الشيخ!" وأبو مدين إذ ذاك بيجاية، وبينهما مسيرة خمسة وأربعين يوماً؛ فكان كَشفاً بينهما. وكانت هذه الحالة تتفق لي كثيراً مع أبي يعقوب، فإن أبا مدين كان قد سكن عن الحركة. وأحفظ من أخباره مما شاهدته وسمعته كثيراً،

تضييق هذه العُجالة عنه؛ وهكذا كلُّ من أذكره، وإنما أذكره لِيُعلم أن الزمان لا يخلو من الرجال.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قسّوم رضي الله. صحب ابن المُجاهد وقرأ عليه حتى مات، واستخلفه في موضعه؛ فجرى على حالته وزاد. جمع بين العلم والعمل وكان مالكيّ المذهب، قائلاً بشرف العلم ومربّته. صحبته وقرأت عليه ما يصلح لي في طهارة وصلاة، وسمعت عليه.

كان دعاؤه في خاتمة مجلسه أبداً: اللَّهُمَّ أَسْمِعْنَا خَيْرًا وَأُطْلِعْنَا خَيْرًا، وارزُقنا اللهم العافية وأدمها لنا، واجمع اللهم قلوبنا على التقوى ووفقنا لما تحبه وترضاه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا! أَنْتَ مَوْلَانَا؛ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ!﴾ وهو الدعاء الذي التزمناه في خواتم مجلسنا. ورأيت النبي عليه السلام في المنام بالحرَم وقارئ يقرأ عليه 'صحيح البخاري' فلما فرغ دعا بهذا الدعاء فزدت عليه غبطة.

كان رضي الله عنه من أهل الجد والاجتهاد غاية، وكان معتدلاً العبادة. التزم وظائف قيها عمر بها أوقاته، لم يزل مُحافظاً عليها حتى الآن. له زمام يُقيده كل يوم حتى الليل، يحاسب به نفسه، فلا ينام إلا عن مُحاسبة. فإذا وجد خيراً يحمّد الله، وإذا وجد غير ذلك يقابله بما يجب له من الاستغفار والتوبة وما يجري مجرى ذلك؛ هكذا كل ليلة.

كان يعيش من خياطة القلنسيات. فقعد يوماً وقد فرغت نفقته فأخذ المقصّ وأسباب شُغله، فسمع الباب قد فُتح ثم أغلق. فخرج فلم يجد أحداً، وقد رُمي له بستة دنانير. فأخذها ودخل ورمى بالمقصّ في البئر وقال "الله يُدبّر عيشي وأنا أدبّره

وَأَتَعَنَّى فِيمَا ضُمِّنَ لِي؛ الرِّزْقُ يَطْلُبُكَ لَا أَنْتَ تَطْلُبُهُ!" فَلَازِمَ بَابَ الْفَتْحِ وَتَرَكَ الْحِرْفَةَ إِلَى الْآنَ.

قَسَمَ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ عَلَى مَا أَقُولُ لَكَ: إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ. وَيَدْخُلُ مِزْلَهُ، فَيَأْخُذُ كُتْبَهُ وَيُخْرِجُ إِلَى الطَّلَبَةِ فَيَقْرَأُونَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ إِلَى ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، وَيَدْخُلُ مِزْلَهُ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَائِمًا أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْغَدَاءِ وَصَلَّى ضُحَاهُ وَنَامَ يَسِيرًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيُسَبِّحُ الْوُضُوءَ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَقْيِيدٌ قَيَّدَهُ وَإِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ.

فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ فَتَحَ الْمَسْجِدَ وَأَذَّنَ، وَدَخَلَ مِزْلَهُ يَتَنَفَّلُ وَيَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَى دُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ مَتَمَكِّنًا، فَيُخْرِجُ إِلَى الْمَسْجِدِ يَقِيمُ الصَّلَاةَ وَلَا يَتَنَفَّلُ. يَتِمَايَلُ فِي مُحَرَابِهِ تَمَايُلَ النَّشْوَانِ مِمَّا يَجِدُ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْوَحْدِ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا سَلَّمَ خَرَجَ وَتَنَفَّلَ رَابِعَةَ الظُّهْرِ وَأَخَذَ الْمَصْحَفَ فَفَتَحَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ وَمَشَى بِيَدَيْهِ عَلَى حُرُوفِهِ، وَعَيْنَاهُ فِي الْمَصْحَفِ، يَرْتِّلُ الْقُرْآنَ بِحَنَانٍ وَتَدَبُّرٍ حَتَّى يُتِمَّ خَمْسَةَ أَحْزَابٍ وَقَدْ حَانَ الْعَصْرُ.

فَخَرَجَ فَأَذَّنَ وَدَخَلَ مِزْلَهُ يَتَنَفَّلُ حَتَّى تَجْتَمِعَ الْجَمَاعَةُ، فَيُصَلِّيُ بِهِمْ ثُمَّ يَدْخُلُ مِزْلَهُ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ حَتَّى يَحِينَ الْمَغْرِبُ. فَيُخْرِجُ وَيُؤَذِّنُ وَيُصَلِّيُ وَيَدْخُلُ بَيْتَهُ فَيُحْيِي بَيْنَ الْعِشَائِيِّينَ حَتَّى يَحِينَ وَقْتُ الْعَتَمَةِ أَوْ قُرْبَهَا، أَسْرَجَ الْقَنَادِيلَ فِي الْمَسْجِدِ وَأَذَّنَ وَدَخَلَ مِزْلَهُ يَتَنَفَّلُ حَتَّى تَجْتَمِعَ الْجَمَاعَةُ فَيُخْرِجُ وَيُصَلِّيُ بِهِمْ.

ثُمَّ يُغْلِقُ بَابَ الْمَسْجِدِ وَيَدْخُلُ مِزْلَهُ وَيُحْضِرُ زِمَامَهُ، فَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ فِي حَرَكَاتِهِ وَأَلْفَاظِهِ وَجَمِيعِ مَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمَلَكَ يَقْيِدُهُ عَلَيْهِ؛ فَتَكُونُ حَالَتُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَجِدُهُ فِي صَحِيفَتِهِ. ثُمَّ يَقُومُ إِلَى سَرِيرِهِ فَيَنَامُ، فَإِذَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ جُزْءٌ قَامَ. فَإِنْ كَانَ أَصَابَ أَهْلَهُ اغْتَسَلَ وَدَخَلَ مُصَلًّا، يَتَرْتَّمُ بِالْقُرْآنِ وَيَتَلَذَّذُ بِهِ؛ تَارَةً فِي حَضْرَةِ التَّوْحِيدِ وَتَارَةً فِي الْجَنَّةِ وَتَارَةً فِي الْإِعْتِبَارِ وَتَارَةً فِي الْأَحْكَامِ، بِحَسَبِ مَا تُعْطِيهِ الْآيَةُ، حَتَّى يَصْبِحَ.

فَيُخْرِجُ مِنْ صَلَاتِهِ وَقَدْ أَطْلَعَ عَلَى عُلُومٍ كَثِيرَةٍ فِي تِلَاوَتِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ، فَهَمَّهُ اللَّهُ إِيَّاهَا مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ تَعَالَى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾! فَإِذَا طَلَعَ

الفجر فتح المسجد وأذن وأسرّج، ودخل منزله فركع سنة الفجر وقعد في منزله يذكر الله حتى يُسفر، فإذا أسفر خرج فصلّى بالناس.
هكذا ديدنه ودأبه. لا يأتدّم في الجمعة إلا مرتين؛ ليلة الاثنين وليلة الجمعة. سنّي الحال والمقام، كبير المعرفة، قلّ أن يرى مثله. جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي، وصلّى خلفه.

ومنهم أبو عمران موسى بن عمران الميرثلي. أنشدني لنفسه في شعر مُجَنّس، يخاطب نفسه:

فأنت ابن عمران موسى المُسيء ولست ابن عمران موسى الكلّيم!
كان رضي الله عنه قد أخذ نفسه بالشدائد؛ لزم بيته منذ ستين عاما لا يخرج إلى الآن. جرى على طريقة الحارث بن أسد المُحاسبي، لا يقبل من أحد شيئا ولا يطلب حاجة لنفسه ولا لغيره.

رأيت له رؤيا تدلّ على انتقاله من مقامه إلى ما هو أعلى منه، فقال لي "بشّرني، بشّرني بالله بالجنة!" فلم يكن إلا يسيرا ونال المقام الذي رأيتُ له. فدخلت عليه في اليوم الذي حصل فيه والسرور باد على وجهه، فقام إليّ وعانقني، فقلت له "هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ" وبقيت دعوتك أن يبشّرني الله بالجنة! فقال "يكون إن شاء الله!" فما تمّ الشهر حتى بشّرني الله بالجنة، بإيجاد آية منه إليّ ظهرت لي مُصدّقة لدعوى المُبشّر عنه تعالى، تحدّى بها على صدق بُشراه لي بالجنة؛ فأنا أقطع بها ولا أشكّ ألبتة في أي من أهل الجنة، كما لا أشكّ في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، غير أنه لا أدري أتمسّني النار أم لا. عافانا الله تعالى وإياكم، وأرجو من كرمه أن لا يفعل!

ولهذا الشيخ شأن كبير ومعرفة تامة وأدب عظيم، مقبوض في عموم أحواله، حسن البشاشة لزوّاره، لنا معه مواطن عجيبة. كانت همته متعلّقة بالله في حفظنا

وعصمتنا من الفتن والرُّجوع، ففضى حاجته في ذلك وشهد لي بها وبشرني. وقال لي منه إليّ. محضّر صاحبي عبد الله بدر الحبشي "كنتُ أتخوّف عليك جدًّا لصغر سنّك وعدم المُعين وفساد الزمان، وما ظهر لي في أهل هذه الطريقة من الفساد، وهم الذين ألزموني بيبي لما عاينتُ من فساد الأحوال؛ فالحمد لله الذي أقرّ عيني بك!"

أنشدني من شعره كثيرا، وطلب مني أن أقيّد له من شعري ففعلت وقرأته عليه وسرّ به. فمما كتبتُ له أبياتا استحسّنها جدًّا ووقعت منه بموقع، فكان منها:

تركتُ هواي في هواه فلا هوى	وكلُّ مُحبٍّ لم يكنه فقد هوى
وأجريت طرْف الأنس في حَلبة الفنا	وجُزت بحار الشوق في مركب الهوى
وألقيت مرسى الوصل في ساحل الرضا	وناداني الحقُّ المُبين من الهوا:
ألا فاكُتوا عبدي من العارفين بي!	وهذا نداء الحقِّ في موقف السّوا
فراجعتُه لَمّا سمعتُ نداءه	بأن: ليس لي همٌّ ولا بُغية سوى
وَصالِك يا مولى ألوذ بقربه؛	فإني أخاف سَطوَةَ البين والتّوى!
فأمّني من كل شيء وقال لي:	ظنونك حسن، إنّ للمرء ما نوى!

ولا أذكر من القصيدة اليوم إلا هذا، وخرجت عني منها أبيات ذكرتها في كتاب 'إنزال الغيوب'. ومن ذلك أيضا:

مُد حلّ كاتبُ حُبِّ الله في خلدي	وخطَّ سَطرا من الأشواق في كبدي
ذُبت اشتياقًا ووجدًا في محبّته	فآه من طول شوقي آه من كمدي!
يا غاية السُّؤل والمأمول، يا سَندي	شوقي إليك شديدٌ لا إلى أحدٍ
يدي وضعتُ على قلبي مخافة أن	يشقّ صدري لَمّا خانني جَلدي
ما زال يرفعها طورا ويخفضها	حتى جعلتُ يدي الأخرى تشدّ يدي
مرّ الفؤادُ عن الجُثمان مُرتحلا	إلى الحبيب الذي يُغني وليس يدي
ما زلتُ أطلبه وجدا وأندبه	بعبرة حيرتها وفرة العدد
حتى سمعتُ نداء الحق من قبلي:	مَن كان عندي لم ينظر إلى أحد؛

فمُت بوجدك أو مُت إن تشأ طرباً فإن قلبك لا يَلوي على الجسد!
 فمُت والحب يطويني وينشُرني وصحت من شدّة الأفراح: واكبدني!
 لَمّا شهدْتُك يا مَنْ لا شبيه له لا فرقَ عندي بين الفرد والعددِ
 فالنفس تُعرفه علماً وثبصره عينا وتَشهده في الوقت والأبدِ
 مَنْ عاين الذات لم ينظر إلى صفة، فإن فيها حجاب الضيف بالصفد!

دخلت على هذا الشيخ فقال لي "يا بُنَيّ عليك بنفسك" فقلت له "إن شيخنا أحمد العُرَيْبي دخلت عليه فقال لي: يا بني عليك بالله؛ فمِمَّن أسمع؟" فقال "يا بني أنا مع نفسي وأحمد مع ربّه، وكل واحد منا ذلك على ما يقتضيه حاله؛ فبارك الله لأبي العباس وأوصلني إليه!" فهذا ما عاينته من إنصافه.

كان يُبسطني غاية البسط، فلا يزيدني ذلك إلا مهابة منه وتعظيماً، فكان يتعجّب من حفظي للأدب معه في حين بسطه معي، فيرجع من المُباسة إلى باب العبودية فحينئذ أبسطه لسرّ عجيب، إن تأملته يا وليي وقفت عليه إن شاء الله تعالى.

ومنهم رضي الله عنهم الأخوان الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط وأبو العباس أحمد الحرّار الإشبيليّان، رضي الله عنهما. صاحبتهما زمانا بإشبيلية حتى إلى عام تسعين وخمسمائة. خرجا يريدان الحج، وهو العام الذي رحلت إليك فيه يا وليي، ووصلا مكة. فأما أحمد فجاور بها سنةً وخرج إلى مصرَ ودخل طريق الملامية، وأما محمد فجاور بها خمسة أعوام ولحق بأخيه بمصر. لما رحلت من عندكم سنة ثمان وتسعين وجدتهما بمصر، فأقمتُ معهما، وبأي عبد الله زمانة، فصُمت معهما رمضانَ وخرجت إلى القدس ومشيتُ إلى مكة وأقمتُ بها إلى الآن، وفي قلبي من فراقهما لهيب.

أما أبو عبد الله فإنه رجع إلى الطريق قبل أخيه بزمان طويل، وكانت له والدة وكان باراً بها رضي الله عنه، لزم خدمتها حتى ماتت. غلب عليه الخوفُ كان إذا

صلى يسمع في صدره دَوِيٌّ على بُعد، سريعُ الدمعة غزيرُها، طويلُ الصمت دائمُ الحزن كثيرُ الفكرة شديد التأوُّه. ما رأيت قط أحشعَ منه، لا تراه أبداً إلا مُطرقاً ضارباً بعينيه الأرض، لا يُمازح أحداً ولا يعاشره. بريءٌ من المداهنة قويٌّ في المناصحة، لا يستحيي في الحق من أحد ولا تأخذه في الله لومةٌ لائم، لا يُداري ولا يُماري. ابتلي بالفقر والضرَّاء فصبر؛ له شأنٌ عجيب وهمّةٌ رفيعة.

كنت أتعشَّقُ به وأنا صغيرٌ عند الذي كنت أقرأ عليه القرآن، وكان جاراً لنا. كان إذا دخل المسجد هابه كل من رآه، ما عاينته قط يكلم أحداً مبتدئاً ولا يجيب إذا كُلم إلا في ضرورة، يحفظ دينه حفظاً. ما تمنيت من كل مَنْ رأيت أن أكون مثله إلا هو!

وأخيتي لما رجعت إلى هذه الطريقة وفرح بي، ولازمته مُلازمةً وانتفعتُ بآدابه وأخذت من خلقه. كان يحتمل الأذى ويكف جفأه، صدوق الرؤيا كثير النجوى، ليله قائم ونهاره صائم، لا تجده فارغاً قط، يحبُّ العلم وأهله. كنا قد اجتمعنا أربعة: أنا وهو وأخوه ورابع لنا، على السواء في كل ما يُفتح به علينا؛ فلم أر أياماً قط في عمري أحسن من تلك الأيام.

رأيت من همته رضي الله عنه أن كان بين متزلي ومتزلهم بُعدٌ كثير، فأُذِنَ بالعمّة وقد وجدتُ في خاطري الانزعاجَ إلى الوصولِ إليه والرجوعَ إلى متزلي؛ وتحركَ الخاطران معاً؛ فحرت كيف أجمع بين الخاطرين. وكنت أعمل على أول الخاطر، فاشتددتُ إليه عدوّاً إلى أن دخلت عليه، فوجدته واقفاً في وسط الدار مستقبل القبلة وأخوه أحمد يتنفل. فسلمت عليه وتبسّم فقال لي "ما الذي أبطأ بك؟ قلبي متعلّق بك؛ عندك شيء؟" وكان في جيبِي خمسة دراهم سَكَّةً فدفعْتُها له فقال "جاءنا فقير يقال له علي السّلاوي وما عندنا شيء!" ورجعت أشتدُّ إلى موضعي.

كان يخدمُ الفقراء بنفسه ويؤثّرهم بالطعام واللباس، وكان رحيماً شفيقاً عطوفاً رفيقاً رؤوفاً رقيقاً، يرحم الصغير ويعرف شرفَ الكبير، يُعطي كل أحد حقّه، له الحق

على الناس وليس لأحد عليه حقٌ إلا الله تعالى. على هذا فارقته وعلى هذا وجدته الآن وعليه تركته، فالله يجمع بيني وبينه في عافية بلا محنةٍ بمنه وكرمه.

وأما أخوه أبو العباس أحمد؛ وما أدراك ما أحمد؟! جمع الفضائل واجتنب الرذائل، عرف الحق فلزمه وكشف له عن السرّ فكتمه؛ هو ممن ينادى من وراء حجاب. قويّ المشاهدة كثير المساعدة وطيء الأكتاف حسن المعاشرة، سمح الخليفة موافق فيما يرضي الله، نزيه الجانب مُخالف لما لم يرض الله. لزم الاسم فسمّا وعمر ذكره كل أرض وسما. تراه كأنه ذاهل، سريع الحركة كأنه مطلوب بثأر، يخضع تحت سلطان وارد الأسرار، كثير المكاشفة.

كنا إذا أخذنا في مسألة غيّب عنا ثم يرجع فيخبرنا بوجه من وجوه ما نحن فيه، هذا الحال له مستمرٌّ إلى الآن. لزم خدمة أخيه لم يخدم غيره، فكل ما هو فيه من بركة أخيه. لقى شيخنا العريبي وأبا عبد الله محمد بن جُنيد وجماعة من أصحابنا، أراد صحبتنا إلى مكة لولا مرض أخيه، ولو كان صحيحا رحلنا بجملتنا.

حلت بمصر هذه المسغبة والوباء الذي هلك فيه أهلها. فمشى يوما فرأى الأطفال الصغار الرضع يموتون جوعا فقال "يا رب، ما هذا؟!" فغيب فنودي "يا عبيدي، هل ضيعتك قط؟" قال "لا" قال "فلا تعترض! هؤلاء الأطفال الذين رأيتهم أولاد الزنا، وهؤلاء الكبار هم قوم عطلوا حدودي فأقمت عليهم حدودي؛ فلا يكن في نفسك من ذلك!" ثم سرّي عنه فبقي راضيا بتلك الحالة للخلق. وعنده من هذه المُخاطبات كثير.

وأما الإيثار وتوسعتهما على الخلق وتضييقهما على أنفسهما، فلا أحد فوقهما في ذلك. جمع الله بيني وبينهما في عافية ولا فرق بيني وبينهما بعد ذلك!

ومنهم أبو عبد الله ابن جمهور محمد، رضي الله عنه. كان من أقران أبي علي الشكّاز وأبي عبد الله الخياط، الذي ذكرناه، في السن والحال، وكان مجتهدا في

العبادة. كان يقرئ القرآن والعربية، لم يقرئ شعرا قط. أخبرني أبو الحسن العثماني قال: كنت وأنا صغير أقرأ عليه القرآن، فسمع دُفًا يُضرب فجعل أصابعه في أذنيه ثم قال لي "هَذَا هَذَا الدَّفُّ أَمْ لَا؟" فقلت "لا" فلما استمر ذلك قام على نفسه وأصابعه قد سدَّ بها أذنيه وانصرف إلى داره، وأرسل إليّ فجئت إليه ودخلت عليه وأتممت عليه حزبي. كان رحمه الله إذا سمع من يقرأ عُشرا في المسجد ليسأل به أو يسمع سائلا في المسجد يسدُّ أذنيه.

كان من الراكعين الساجدين حتى قبضه الله تعالى إليه. كان قوي القلب ضعيف البدن مُصفر اللون شديدا على نفسه، يقال له "أَرْفُقْ بِهَا" فيقول "لِلرَّفَقِ أَجْهَدُ!" كان يقوم إلى حزبه من الليل، فيقوم حتى يسقط من قامته، يضع خدّه لينام فيقول:

يا خَدُّ إنك إن تَوَسَّدَ لَئِينًا ؛ وَسَدْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ صَمَّ الْجَنْدَلِ !
فَيَثِبُ إلى مُصْلَاهُ كَأَن أَفْعَى قَدْ لَدَغَتْهُ، فلا يزال هكذا إلى أن يصبح. فلقد مات، رحمه الله، وأنا في خدمة أبي يعقوب الكومي. فلما أُلقي في القبر رأيت أعجوبة: سبب الله، لا أدري من أين، جندلا كبيرا حصل معه في القبر، فصاح بعض الناس، فأخذه الذي أنزله في القبر وجعل الجندل تحت خدّه؛ فعلمت أن الله صدقه في قوله:
يا خَدُّ إنك إن تَوَسَّدَ لَئِينًا وَسَدْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ صَمَّ الْجَنْدَلِ !
كان رحمه الله كثير النور من الخلق، يُحب الوحدة والعزلة، ورعا زاهدا عارفا بالله واقفا مع الله، شديد المعاملة طلبا للمواصلة، يحب أهل الله؛ أهل القرآن. توفاه الله صغير السن في عُنفوان شبابه ونار اجتهاده يقول لنفسه "لا زال دأبي ودأبك هذا حتى أموت!" ما فاقه أحد في العبادة.

ومنهم أبو علي حسن الشُّكَّاز رضي الله عنه. كان عندنا بإشبيلية وبها مات، هو الذي خدم صالحا العدوي شيخنا حتى مات. كان كثير الدمعة لا تزال عينه تهُطَل

أبدا. كان لي عم، أخو والدي، وكان من أهل الله وخاصته وكان أبو علي يلازمه، فكنت أبيتُ معه فألقي الحَصِيرَ الجديد له يصلي عليه فتجري دموعه فتسقط على الحَصِير، فأقلعه في اليوم الثاني وموضع دموعه قد تعفن كله وانتثر. عاشرته من وقت دخولي في هذه الطريقة حتى مات.

كان مُولعا بالنكاح جدا لا يستغني عنه، فأراد شيخنا الشُّبرُّبلي يأخذه لابنة أخته، فمشت إليه أمُّ الزَّهراء فقالت له "يا أبا علي، إن الشيخ أبا الحجاج يحب أن يعطيك بنت أخته" وكان هذا يومَ الأحد، فأطرق ساعةً إلى الأرض كأنه يُحدِّث، ثم قام وقال "أنا كنت أحبُّ الناس في مُصاهرة شيخنا أبي الحجاج، ولكن قد تزوجتُ وبعدَ خمسة أيام من يومي هذا أدخل بزواجي عروسا" فقالت له "بنت من تزوجت؟" قال "سترين ذلك اليوم!" وانصرف إلى منزله ولزم فراشه حتى انقضت خمسة أيام، فمات رحمه الله تعالى.

كان يمدُّ يده إلى ما وجد من نبات الأرض من أعظمه مرارةً فيطعمك إياه كأنه حلواء! رأيتُ له بركات كثيرة، انتفعت بصُحبته، كان قد عمل على 'الأربعين السُّهيلية' وكان شجاعا يعيش من عمل يده. رآه أخوه بعد موته فقال "ما فعل الله بك؟" فقال "يعطيني في كل يوم عمل ثمانية أيام!" كان دائم الصيام والمواصلة، كثير القيام، مُنقبضا عن الناس غير مجالس لهم ألبنة، يحنُّ إلى جنسه. كان مَلِيحَ الدُّعابة يمزح ولا يقول إلا حقا، وكان يُعجبه المَزح بالحق ويكره الكذب وأهله ولا يحتمله. خرج يوما إلى دُور بني صالح بجلود له فأنقعه في النهر وبسطها في الشمس، فمرت به امرأة من أهل إشبيلية، وفيهم وفي نسائهم حلاوة وظرافة، فقالت لصاحبتها "تعالِي يا أختي تُمازح هذا الرجل فإنه شكار!"

والشكارُ عندنا: المشتغلُ بهذه الجلود الرِّقاق على نوعٍ ما؛ يُبيضُها ويُليِّنُها كثيرا بعد شدِّتها. فأتخذ أهلُ البلدة هذه اللفظة، لفظة الشكار، لقباً للرجل الذي لا يقوم

بالنساء. يقال للرجل الذي لا يقوم بالنساء: شكّاز؛ أي لئن العضو مثل الجلد الذي يعمل.

فوقفت عليه المرأة وهو يذكر الله تعالى، وكان هو كثير الذكر لا يفتر، فقالت "السلام عليك يا أخي" فقال "وعليك السلام" ورجع إلى ذكره، فقالت له "ما صنعتك وما حرفتك؟" فقال لها "خَلِّي عنك هذا!" وعلم ما تريد، فقالت له "لا بُدّ من هذا!" فتبسّم وقال لها "أنا رجلٌ أبلُّ اليايسَ وألّين الشديداً وأنتف المشعر!" فولّت وهي تضحك وقالت "أردنا أن نرميه فرمانا!"

وكان جليل الشأن سليم الصدر، ما أضمر شحناء لأحد قط، لا يعلم ما الناس فيه وما يتخيّل أن في الوجود من يعصي الله تعالى.

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ابن العربي الطائي، وهو عمّي شقيقٌ والدي. دخل هذا الطريق في آخر عمره على يد صبي صغير، لم يدر قط هذا الطريق ما هو؛ دخله وهو في عشر الثمانين، فلازم المُجاهدة والسّواحِل حتى برّع فيه. كانت له في كل يوم ختمة لازمة، يهب نصفها لذلك الصبي الذي رجع على يديه؛ بصره ذلك الصبي بالطريق!

كان رحمه الله يجلس في البيت فيقول "قد طلع الفجر" فسألته "من أين تعرف ذلك؟" فقال "يا بني إن الله تعالى يُوجّه ريحا من تحت العرش تهبّ في الجنة فتخرج بريحها عند طلوع الفجر، يشمّها كل مؤمن في كل يوم!"

أصابته أذرة كبيرة فكان يجعلها أمامه مثل المَخَدّة. وكان له ولدٌ خَلْفٌ قد أقرح قلبه، فدعا عليه فمرض، وكان يسأل الله أن يُقدّمه أمامه وحينئذ يموت، فمات ابنه قبله. فلما دفنه قال "الحمد لله! إني أعيش بعده أربعة وأربعين يوماً وأموت" فعاش كما قال ومات.

ولما كانت ليلة وفاته قعدنا عنده بعد صلاة العتمة، وهو مستقبل القبلة، فوجد بعض راحة، وأدركته قد عظمت فقال لنا "استريحوا وارقدوا" فأخذنا مضاجعنا. فقمت إليه في السحر فوجدته قد فاضت نفسه رحمه الله وما شهد أحد موته، وطلبنا تلك الأذرة فلم نجد منها شيئاً فقلنا "لعلها كانت رياحاً وبقي الجلد!" فإذا به مثل جميع الناس ما عنده شيء؛ فعجبت أن ستره الله وأخفاه.

كان يخبرنا بعجائب، كان عمره من وقت رجوعه إلى هذا الطريق إلى أن مات ثلاثة أعوام خاصة، مات قبل أن أدخل هذا الطريق.

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن الأستاذ الموروري. خدم الشيخ أبا مدين وكان الشيخ يسميه الحاج المبرور. حجّ صُحبة عبد الرزاق، وصاحب بمكة أبا عبد الله بن حسان. طلب ابن حسان أن يعطيه ابنته رغبة فيه فأبى أن يأخذها مخافة أن لا يقوم بحقها.

كان الشيخ أبو مدين يُحبه جداً قال له يوماً "يا عبد الله، كبر عليّ دُعائي الناس إلى الله ولا أحد يُحِب. وأريد أن أصطفيك لنفسِي؛ تخرج معي إلى بعض هذه الجبال فالزِم مغارةً تصحبني فيها إلى أن أموت!" قال: ففرحت بذلك وعلمت أن لي عند الله مكانة، فلما كان الليل نمتُ فرأيت الشيخ في النوم إذا تكلم على الناس صار شمساً وإذا سكت صار قمراً. فقصصتها عليه بكرة فتبسّم وقال "الحمد لله يا ولدي، شمساً أريد أن أكون؛ فإن الشمس تنفي كل ظلمة وتكشف كل كربة!" كان هذا عبد الله له همّة فعالة وصدق عجيب.

سافر من عند الشيخ أبي مدين إلى الأندلس بسبب والدته، فأودعه الشيخ أبو مدين سلامه إلى أبي عبد الله الشيخ المُسنّ، بمدينة المريّة، المعروف بالغزال -من أصحاب ابن العَرِيف، من أقران أبي مدين وأبي الربيع الكفّيف الذي كان بمصر وعبد الرحيم الذي كان بقنا وأبي التّجا الذي كان بجزيرة الذهب، رحمهم الله تعالى.

فلما وصل إلى المريّة قصدَ إلى الشيخ أبي عبد الله فوجد أصحابه قعوداً فقال لهم "استأذِنوا لي على الشيخ!" فقالوا "الشيخ نائمٌ في هذه الساعة" ولم يُقبلوا عليه، فعزَّ عليه ما هم فيه من كثافة الحجاب حيث لم يعرفوه، فقال لهم "إن كنتُ جئتُ إليه في الله، فالله يُوقِظُه الساعة!" فإذا الباب قد فُتح والشيخ قد خرج يمسح النومَ عن عينيه فقال "أين هذا الذي جاء؟" فسلم عليه وأكرم نُزله.

وكان الغالبَ على أبي محمد البسطُ، وكان أصحاب الشيخ مقبوضين. فعندما وادعهم وانصرف قال له أصحاب الشيخ "لو انقبضتَ يا أبا محمد من هذا البسط الذي أنت فيه؟!" فقال لهم "البسط ما هو؟" فقالوا "رحمة" قال "والقبض ما هو؟" قالوا "عذاب" فقال "اللهم لا تنقلني من رحمتك إلى عذابك!" فخرجوا وانصرف عنهم.

ومن أخباره رضي الله عنه أنه لما وصل إلى إغرناطة نزل عند الشيخ أبي مروان، من أصحاب الشيخ أبي مدين، وكان قد عرفه عند أبي مدين. وقد رأى أبو مروان الشيخَ أبا مدين في حقِّ رجلٍ مرضٍ منهم فأخذوا عنه مرضه وحملوه فاستراح من حينه، فأخبر أصحابه بذلك بإغرناطة. فلما وصل شيخنا عبد الله الموروري إلى أبي مروان، اجتمع الناسُ من أجله في الدار وقد جعلت بين أيديهم مائدةٌ وعليها مُجَبَّنات بعسل، وكان ابنُ صاحب الدار قد مَشَى في السحر إلى قرية له قريبة من البلدة، فتأسف أهلُ المجلس لَمَّا لم يحضر معهم الطعامَ ابنُ صاحب الدار.

فقال لهم أبو محمد الموروري، بعدما أكل وشبع وأكل الناسُ "إن شئتم أكلتُ عنه هنا ويشبع هو في قريته من هذا الطعام بعينه!" فارتابوا في كلامه وتوقفوا في ظاهرهم، وباطنهم يُحيل ذلك جُملة. فقال له أبو مروان "بالله يا أبا محمد، افعلْ ذلك!" فقال "بسم الله" وابتدأ يأكل كأنه ما أكل شيئاً، حتى وقف وقال "قد شبع، إن زدتُ عليه أكثر من ذلك يهلك!" فبهت أهلُ المجلس وعزموا أن لا يبرح أحدٌ منهم حتى يصل ذلك الرجل الذي أُكلَ عنه.

فلما كان عشيّة ذلك اليوم دخل هو عليهم من القرية، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا "نراك جئتَ بزادك الذي حملته معك؛ ما أكلت منه شيئاً؟!" فقال لهم "يا إخوتي، اتَّفَق لي اليومَ شيءٌ عجيب؛ أنا عندما وصلتُ إلى القرية وقعدت فإذا أنا أُحسُّ بِمُجَبَّنَاتٍ بعسل تتزل في حَلْقِي فتستقرُّ في مَعِدَتِي حتى شَبِعْتُ، ولو زادت عليَّ أهلكني، وأنا حتى الآن شابع منها أتجشَّؤها!" فتعجَّب القوم وفرحوا أن رأوا رجلاً أخبر بالمسألة كيف جرت. أخبرني بها، بدار عبد الله الشكاز الباغي، الشخص الذي أكل عنه فشيع، ومعني صاحبي عبد الله بدرٌ ونحن في جماعة، وتأسَّف وقال "مَن مثْلُ عبد الله الموروري؟ ما رأينا مثله!"

ولقد أطلعني الله عز وجل ليلةً على المقامات ومشى بي عليها حتى وصلتُ مقامَ التوكل، فرأيت شيخنا عبد الله الموروري في وسط ذلك المقام والمقام يدور عليه كدوران الرحى على قُطْبِهَا، وهو ثابت لا يتزَلزل؛ فكتبتُ إليه بذلك. عاشرته معاشرة وانتفعت به. وله امرأةٌ في غاية من الجمال، صغيرة السن، أحسنُ منه وأقوى.

كان سيدنا هذا عند شمس أم الفقراء بِمَرَشَانَةِ الزَّيتون في يوم أربعاء فقالت العجوز "تَمَنَّيتُ أَنْ يَأْتِيَنَا غدا أبو الحسن بن قَيْطُون، فَاكْتُبُوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ عسى يَصِلَ غدا!" وكان في بلد قَرَمُونَة، بينهما سبعة فراسخ. وكان هذا أبو الحسن يعلم الصبيان القرآن بقرمونة ويعطل الخميس والجمعة، فقال أبو محمد سيدنا رضي الله عنه "هكذا تعمل العامة!" فقالت له العجوز "فماذا نفعل؟" قال "نسوقه بِهَمَّتِي!" فقالت له "افعل" فقال "قد حرَّكتُ الساعةَ خاطره بالوصول إلينا غدا إن شاء الله تعالى"

فلما أصبح قالت له "نراه ما جاء!" قال "غفلتُ عنه ولكني أُخرجه لكم الساعة!" فأرسل هَمَّتَه إليه. فلما كان قبيل الظهر دخل عليهم على غفلة أبو الحسن المذكور، فتعجَّبوا. فقال الموروري "سلوه: ما الذي أمسكك عنا إلى هذا الوقت وكيف خطر لك ومتى نويت الوصول إلينا؟"

قال: أمس وقتَ العصر، وجدتُ في باطني قائلاً يقول "مُرَّ غداً إلى العجوز بِمرْشاة!" فقلت لصبيان المكتب "لا يَجِيءُ أحدٌ منكم غدا!" فلما أصبحتُ فترَ عني ذلك، وهو الوقت الذي غفل فيه سيدنا محمد عنه. قيل له "إيه!" قال "فوجَّهتُ إلى الصَّبيان ووصلوا وأخذوا أُلواحهم ليكتبوا، فأنا كذلك إذ وجدت قلبي قد انقبض وشدَّ عليه وقيل لي "أُخرج الساعةَ إلى مرْشاة لزيارة العَجوز!" فقلت للصبيان "سيروا إلى منازلكم!" وهو كان خروجي إليكم؛ فهذا الذي أبطأني. فقالوا له أنه اتَّفَق من الأمر كذا وكذا ووصفوا له الحال، فتعجَّب وقال "هذا والله العظيم كان!" فكان بعد ذلك ينظره بعين التعظيم.

واهتز وأخذ في الرِّحلة، أبو الحسن المذكور، إلى المريَّة إلى شيخ كان بها يقال له أبو عبد الله الغزَّال رحمه الله تعالى، من أصحاب ابن العريف، من أقران أبي الربيع الكفيف وأبي النجا وعبد الرحيم وهذه الطبقة، ورآه وانتفع به. ثم عاد إلى قَرْمونة فلم يزل يخدمُ الفقراء ويضيِّفهم ويتواضع لهم، وكنت أستحسن منه ذلك. فأشهد: لقد رأيته قد وصل إلى إشبيلية فصاحبُ الفقهاء وجالسُ الطَّلَبَةِ المُكَيَّنِ على الدنيا وقرأ الفقه وأصوله وعِلْمَ الكلام، وسكَنَ إشبيلية يُعَلِّمُ بها القرآنَ. فأداه صُحْبَةٌ أولئك إلى تجهيل الفقراء الصادقين في أحوالهم ونَبَذهم.

وإياك يا أخي، عافاك الله، من قيام الظنِّ السَّوء بك أن تظنَّ فيَّ أُنِي أذمُّ الفقهاء من أجل أنهم فقهاء أو لتعلِّمهم الفقه، لا ينبغي أن يُظنَّ هذا بمسلم؛ فإن شرف الفقه وعلم الشرع لا خفاء به! ولكن أذمُّ من الفقهاء الصَّنْفَ الذي تكالَّب على الدنيا وطلبَ الفقه للرياء والسُّمعة وابتغى به نظرَ الناس إليه ليُقال، ولازم المراءَ والجِدال، وأخذ يردُّ على أبناء الآخرة الذين اتَّقوا الله فعَلَّمهم من لدُنْه علما.

فأخذت الفقهاء، أعني هذا الصنف منهم، في الردِّ عليهم في علمٍ لا يعلمونه ولا عرفوا أصوله. ولو سئل أحدُهم عن شرح لفظةٍ مما اصطَلَح عليه علماء الآخرة ما عرفه، وكفى به جهلاً! ولو نظر في قول الله تعالى ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ

بِهِ عِلْمٌ؛ فَلَمْ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟!﴾ لاعتبر ورجع وتاب. وقد ذمَّ النبي عليه السلام العلماء الذين طلبوا العلم لغير الله وتصرفوا به في غير مَرَضَةِ الله، لا لكونهم عِلَمُوا. كما مدح الصَّنَفَ الآخر من العلماء بالخشية وغير ذلك.

كما أني قد ذممت الصوفيّة في كتابي هذا، ولم أُرِدْ بهم الصادقين، وإنما أعني الصنف الذي تزَيَّا بزَيِّهم عند الناس وباطنه مع الله بخلاف ذلك؛ قال تعالى ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾.

فلا أنكر مرتبة الفقه وقد سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله «مَنْ يُرِدِ اللهَ به خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي الدِّينِ» ولكن لما كان هذا الصَّنَفُ من الفقهاء غلبت عليهم نفوسهم وشهواتهم، واستولى عليهم الشيطان، وعلى أيديهم جرى الضرر على أهل الله وبشهادتهم هلكوا، كما سيأتي في آخر الكتاب هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما العلماء العاملين المنصفون الراسخون في العلم فهم الأئمة الذين هداهم الله؛ فهم مصابيح الهدى وأعلام التقي، وارثو رسول الله صلى الله عليه وسلم في العلم والعمل والحال والوصف الذي صح لهم به نسب التقوى.

فإذا سمعتني أذم الفقهاء في هذا الكتاب، فإنما أعني به هذا الصنف المُدْبِرَ الذي اتَّبَعَ شهواته وغرض نفسه الأمانة بالسوء. وكذلك ذمّي للصوفية، إنما أذم الصنف الذي ذكرت، فإن الحُلُولِيَّةَ والإِبَاحِيَّةَ وغيرهم من هذا الطريق ظهروا وتظاهروا، وبال دعاوى اتصفوا؛ فهم قُرَنَاءُ الشَّيْطَانِ وخُلَفَاءُ الْخُسْرَانِ. نور الله بصائرنا وبصائرهم، وأصلح سرائرنا وسرائرهم وأوقفهم على عيوبهم لعلهم يرجعون!

نرجع إلى كلامنا فنقول: وأشهد لقد وصل إلينا هذا السيد عبد الله الموروري، الذي ربيت له تلك البركات، فخرج إليه، أي إلى أبي الحسن الفقيه المذكور، ليزوره في داره، وأنا معه وصاحبي عبد الله بدر الحبشي. فلما طرّق عليه الشيخُ البابَ قال "من بالباب؟" قال "عبدُ الله الموروري؛ جاء ليراك!" فسكت ساعة، ثم خرج إليه ابنه وقال له "مَشْغُولٌ هُوَ" ثم قال "ما هو هنا" ولم ير مكانته! إلى هذا انتهى بغضه في

الفقراء، وهذا إنما حصل له من شؤم الفقهاء؛ حال الله بيننا وبين كل من يقطع بنا عن الله وعن أهله وخاصته!

وكان إذا لَقِيَنِي يَعْتَبِنِي على صُحْبَتِهِمْ ويقول لي "مِثْلُكَ مَنْ يَصْحَبُهُمْ؟!" فأقول "مثلي لا يصلح أن يخدمهم؛ فإنهم السادة!" وإنما كان يَحِنُّ إِلَيَّ لِمُشَارَكَتِي له في علمه الذي قرأه، لا لكوني في طريق القوم ولا لِمَحَبَّتِي فيهم. فتركته في ذات الله تعالى وتركت مُعَاشَرَتَهُ وصار اليوم حُكْمَهُ حُكْمَ الفقهاء في الولاية أَمَا "معقولة متوهمة ولا يُعَرَفُ صاحبُها". ثم إذا وَصَفَ الفقيه أفعالَ الأولياء أَقَيَّدَها عليه ثم أُرِيه تلك الأفعالَ في شخصٍ مَّا، فإذا رآه يقول "إِيه، مَنْ قال أنه أَحْلَصَ فيها؟ لو كان مُخلَصًا ما أَطْلَعْتَ أَنتَ ولا أنا على عمله؛ إنما هو نَصَبَ هذا لِحِيلَةٍ مَّا!" فلا تَرَاهُ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِأَحَدٍ قَطُّ!

ولم أزل أبدأ، والحمد لله، أَجَاهِدُ الفقهاء في حق الفقراء السادة حقَّ الجهاد، وَأُذِبُّ عَنْهُمْ وَأَحْمِي؛ وبهذا فُتِحَ لي! وَمَنْ تَعَرَّضَ لَدَمِّهِمْ والأخذ فيهم على التَّعْيِينِ، وَحَمَلْ مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ على من عَاشَرَ؛ فإنه لا خَفَاءَ بِجَهْلِهِ ولا يُفْلِحُ أَبَدًا!

ولقد تكلَّم معي بحرم مكة فقيهٌ يقال له القاضي عبد الوهاب الأزدي من أهل إسكندرية، قد استحوذَ الشيطانُ على قلبه بحيثُ صَيَّرَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الزمانَ فارغٌ من جميع المراتب في كل فنٍّ، وأَما هي تَلَفِيقَاتُ وَخُرَافَاتُ. فسألته كم بلد في مَعْمُورِ الأَرْضِ للمسلمين، فقال "كثير" فقلت له "كم دخلتَ منها؟" فذكر سِتَّةَ بلادٍ أو سبعة، قلت له "كم خَلَقَ فيها؟" قال "كثير" فقلت له "مَنْ أَكْثَرُ: الذي رَأَيْتَ أم الذي لم تَرَ؟" قال "الذي لم أرَ" فضَحِكْتُ وقلتُ له "حَدُّ الْمَعْتَوَةِ الْأَحْمَقِ: الذي يَرَى الكثيرَ وَيَقَى له القليل، فيَقِيسُ القليلَ على الكثيرِ وَيَحْمِلُهُ عليه في الحُكْمِ بما يراه. وأما المؤمنُ الناصحُ نَفْسَهُ فإنه يقول: ولعلَّ في ذلك القليل، ولو كان واحدا ولم أره، لعلَّه ذلك السعيد! كيف وَمَنْ يقول: إني ما رَأَيْتُ إِلَّا القليل، لا من البلاد ولا من الناس، ثم يَعْتَقِدُ ذلك؟! فلا خَفَاءَ بِجَهْلِهِ!

ثم إنه لا يُطلعُ الله مثلَ هذا إلا على نقائص العالم، لا على فضائله، حتى يحكم على الغائب بما رآه؛ فيشقى بذلك عند الله. وأين هو من قول الله تعالى ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكثرتهم، وقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقللهم.

ثم إن في المسألة ما هو أعجب من هذا كله: إني سمعته يقول ما يُناقض أصله من جهة علمه، فقال "الناس على قسمين: ذكي وغير ذكي؛ فغير الذكي لا كلام معه، يعني لنقصه، والذكي لا يسلم من الغلط. فما ثم شيء!" فانظر نظره إلى باب العيب والنقص لشقاوته، وتركه النظر في أحوالهم إلى باب الفضل. هلا قال عند هذا التقسيم: فغير الذكي يأتي إلى العالم فيأخذ منه العلم تقليدا، لعدم ذكائه وفطنته؛ فيوفق ويرجى أن يعلمه الله. والذكي الغالب عليه الإصابة في عموم أحواله، وهذا لا يقنع في الأشياء إلا بالبرهان من نفسه لذكائه؛ فمهما غلط، وإن استمر في غلظه بعد اجتهداه، فمغفوء عنه أو قد يرجع عن ذلك؟!

وأما نقض أصله فيها فقول النبي عليه السلام في الحاكم إذا اجتهد «إِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»؛ كلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ! فتراه مأجورا في الحالتين، لا وزرَ عليه ألبتة. هو مُصِيبٌ لِلْحُكْمِ، حُكْمُ اللَّهِ فِي الْمَسْأَلَةِ، لَأَنَّهُ تُعْبَدُ بِاجْتِهَادِهِ فَتُعْبَدُ نَتِيجَةً لَذَلِكَ؛ وذلك حكمُ اللَّهِ فِي الْمَسْأَلَةِ. فرأيتُ هذا الفقيهَ أَجْهَلَ الْجَاهِلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله الباغي الشكاز رضي الله عنه، من حصن باغة، سكن إغرناطة وهو بها حتى الآن. اجتمعت به في منزله مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي، وكانت عادتي إذا دخلت على مَنْ دخلت عليه من شيخ أو فقير أدفع إليه كل درهم يكون عندي، لا أمسك شيئا ألبتة؛ فلم يكن عندي سوى درهم واحد في ذلك اليوم فدفعته إليه.

كان رضي الله عنه من أهل الجد والاجتهاد، الغالب عليه الحزن والبكاء، يكره المعصية كما يكره الكفر، ويكره الصغيرة كما يكره الكبيرة. تحقق في مقام المحافظة؛ يكاد يكون معصوما، كما قال أبو عقال قال: صحبت شيخا هارون فلم أر له كبير عمل؛ كان ينام الليل كله. فوقع في نفسي من قلة اجتهاده. فهتف بي هاتف ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؛ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!﴾ فأتيتُه فقلت له "يا سيدنا، هل أتيت كبيرة قط؟" قال "لا ولا صغيرة عن تعمدا!"

كان الشكاز هذا رضي الله عنه ليلة قائم ونهاره صائم، لم يقدر مُريد قط على صحبتته لأنه كان يطلبه باجتهاده فيفِر منه. عاش وحيدا فريدا ليس عنده ولا له، شديدا على نفسه؛ يقال له عن رحمة الصحابة بأنفسهم فيقول "لو لم يكن لهم إلا الصُحبة؛ متى نلحق بهم؟!" لم أر له شيئا إلا أبا مسلم الخولاني التابعي رضي الله عنه، كان قد أخذ في الجد والاجتهاد؛ يقطع القُضبان، فإذا كسل عن الوقوف في الصلاة، ضرب بالقضيب ساقيه ويقول "أنت أحق بالضرب من دأيتي!" حتى تنكسر القُضبان كلها ثم يقول "أیظن أصحاب محمد أن يفوزوا بمحمد دوننا؟! والله لأزاحمتهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالا!"

كان هذا الشكاز مليح المُقابلة حسن المعاشرة كثير التلُف، يَحِنُّ إلى الإشارات. سمعته يقول "انظروا في هذه الأربعة ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ رضي الله عنه.

ومنهم أبو محمد عبد الله القُطَّان المفتوح عليه في القرآن. كان يصدع بالأمر، لا تأخذه في الله لومة لائم، يردُّ كلام السلاطين في وجوههم أقبح الرد، له صولة؛ يرمي بالحق من يشاء ولا يُبالِي. عرَّض بنفسه للقتل من كثرة سبِّه لأفعال السلاطين وما هم

عليه من مخالفة الشريعة: له مجالس معهم يضيق الوقت عن ذكرها. لا يتكلم إلا بالقرآن ولا يرى غيره، لم يكتسب كتابا. سمعته يقول بمدينة قرطبة في جماعة "مساكين المصنفات والتوايف؛ ما أطول حسابهم غدا! أليس في كتاب الله وفي حديث رسول الله مَقْنَع؟!" كان يُحافظ على صلاته وعلى صيامه لم يتنعم قط ولا جمع بين درهمين.

وجّه السلطان فيه لِيَقْتله فأحذه الأعوان ودخلوا به على الوزير، فأقعد بين يديه فقال "يا ظالم، يا عدو الله وعدو نفسه؛ في ماذا وَجَّهْتَ؟" فقال "قد أمكن الله منك، ما تعيش بعد هذا اليوم!" فقال له الشيخ "إنك لا تقرب أحلا ولا تدفع مقدورا، كل ذلك لا يكون؛ أنا الذي والله أشهد جنازتك!" فقال الوزير لوزعته "أسجنوه حتى أشاور السلطان في قتله" فسُجن تلك الليلة وانصرف وهو يقول "عجبا، لم يزل المؤمن في سجن؛ وإنما هذا بيت من بيوت السجن!"

فلما كان في اليوم الثاني جلس السلطان وأخبره الوزير بقصة الشيخ وكلامه، فأمر به فحضر بين يديه، فرأى رجلا دَمِيم الخَلقة، لا يؤبه له وما أحد من أهل الدنيا يريد له خيرا. وهذا كله لقوله الحق وإظهاره معانيهم وما هم عليه من الجور والفساد. فقال له السلطان بعد ما سأله عن اسمه ونسبه "أتحفظ توحيدك؟" فتلاه عليه من القرآن بَتَقَاسِيمه، فتعجب الملك وانبسط له، إلى أن دخل معه في المملكة وشأنها.

فقال له السلطان "ما تقول في مُلكي هذا؟" فضحك، فقال "مِمَّ تضحك؟" قال "منك؛ تُسمي الهذيان الذي أنت فيه 'مُلْكًا' وتسمي نفسك 'مَلِكًا'؟! أنت كمن قال الله فيه ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾؛ وإنما كان الملك الذي يُصلى اليوم بنارها ويجزى بها. وأما أنت فرجلٌ عُجنت له خُبْزَة وقيل له: كُلْهَا!" ثم أغلظ عليه في القول بكل ما يكرهه ويغيظه، وفي المجلس الوزراء والفقهاء. فسكت السلطان وحجل وقال "هذا رجل مُوقَّق؛ يا عبد الله اجلس مجلسنا!" قال "لا فإن مجلسك مغصوب ودارك التي تسكنها أخذتموها بغير حق، ولولا أي مجبور ما دخلت هنا؛

حال الله بيني وبينك وبين أمثالك!" فأمر له بأعطية وعافاه في نفسه، فردَّ الأعطية وقبل العفو وخرج، فأمر السلطان أن تُدفع إلى أهله. وما مضى زمنٌ قليل إلا والوزير قد مات، وخرج أبو محمد وحضر جنازته وقال "بررتُ في قَسَمي!"

كان يصيح ويرفع صوته أمام أرباب الدولة ويقول "هؤلاء الفُجَّارُ بَعُوا في الأرض؛ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾!"

صاحبت هذا الرجل وكان يُحبُّني كثيرا. استدعيته ليلةً لبيت عندي، فلما أخذ مجلسه جاء والدي رحمه الله، وكان من أصحاب السلطان. فلما دخل سلَّم عليه، وكان والدي قد شاب وأنقى. فلما صلينا العشاء قدَّمتُ له الطعام وقعدت أكل، وانضمَّ والدي يَغْتَنِمُ بَرَكَتَهُ. فردَّ إليه وجهه رضي الله عنه وقال له "يا شَيْبَةَ منحوسة، أما آن لك أن تستحِيَّ من الله؟! إلى متى تصحَّب هؤلاء الظلمة؟ ما أقلَّ حيائك! أأمنت من الموت أن يَأْتِيكَ وأنت على شرِّ حالة، أما لك في ابنك هذا -وأشار إليّ- مَوْعِظَةٌ؟! شابٌّ صغير في شهوته، قمع هواه وطرده شيطانه وعدل إلى الله يُصَاحِبُ أهلَ الله؛ وأنت شيخ سوء على شفا حُفْرة من النار!" فبكى والدي واعترف وأنا في ذلك كله أتعجَّب.

أخباره كثيرة وشأنه عجيب. جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله الحبشي بقرطبة ومشينا معه إلى منزله رضي الله عنه. سمعته يوما يقول "عجبت لمن يطلب ما يركب وهو لم يشرع في شكر ما أكل وما لبس!" كان لا يريد على الحاجة شيئا في مأكله وملبسه، كان قاصما للجبارين ما تفوُّته قطُّ غزوةً في الروم راجلا بغير زاد.

ومنهم عبد الله بن جعدون بن محمد بن زكريا الحناوي، مات بفاس سنة سبع وتسعين وخمسائة، جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي. كان رضي الله عنه واحدا من الأربعة الأوتاد الذين يُمسك الله العالم بهم. سأل الله تعالى أن يُسقط

حُرْمَتَهُ مِنْ قُلُوبِ الْعَالَمِ، فَكَانَ إِذَا غَابَ لَمْ يُفْتَقَدَ وَإِذَا حَضَرَ لَمْ يُسْتَشَرَّ وَإِذَا جَاءَ لَا يَوْسَعُ لَهُ وَإِذَا تَكَلَّمَ بَيْنَ قَوْمٍ ضُرِبَ وَسُخِّفَ.

كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِي بِهِ مَا أَذْكَرُهُ الْآنَ: وَذَلِكَ أَنِّي لَمَّا وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ فَاسٍ، وَكَانَ ذِكْرِي قَدْ بَلَغَ مَنْ بَلَغَ، فَأَحَبُّ مَنْ بَلَغَهُ ذَلِكَ الْاجْتِمَاعَ بِي. فَكُنْتُ أَفِرُّ مِنَ الدَّارِ إِلَى الْجَامِعِ فَلَا أَوْجِدُ فِي الدَّارِ، فَتُطَلَّبُ فِي الْجَامِعِ، وَأَنَا أَرَاهُمْ فَيَأْتُونِي فَيَسْأَلُون عَنِّي فَأَقُولُ لَهُمْ "أَطْلُبُوهُ حَتَّى تَجِدُوهُ!"

فَبَيْنَمَا أَنَا قَاعِدٌ وَعَلَيَّ ثِيَابٌ رَفِيعَةٌ جَدًّا، وَإِذَا بِهَذَا الشَّيْخِ قَدْ قَعَدَ بَيْنَ يَدَيَّ وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ لِي "السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ" فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ، فَفَتَحَ كِتَابَ 'شرح المعرفة' لِلْمُحَاسِبِيِّ فَقَرَأَ مِنْهُ كَلِمَاتٍ ثُمَّ قَالَ "لِي اشرح لي وَيِّنَ مَا قَالَ!" فَخُوطِبْتُ بِأَحْوَالِهِ وَمَنْ هُوَ وَمَقَامُهُ وَأَنَّهُ مِنَ الْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ وَأَنَّ ابْنَهُ يَرِثُ مَقَامَهُ، فَقُلْتُ لَهُ "عَرَفْتُكَ؛ أَنْتَ فُلَانٌ" فَأَغْلَقَ كِتَابَهُ وَقَامَ وَاقِفًا وَقَالَ "السَّتْرُ السَّتْرُ! إِنِّي أَحْبَبْتُكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ؛ فَقَدْ صَحَّ الْمَقْصُودُ" ثُمَّ انصرفت.

لَمْ أَكُنْ أَجَالِسُهُ قَطُّ إِلَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَنَا أَحَدٌ. وَكَانَ مَعْقُودَ اللِّسَانِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ، فَإِذَا تَلَا الْقُرْآنَ كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا وَأَبْرَعَهُمْ مَسَاقًا. كَانَ كَثِيرَ الاجْتِهَادِ وَكَانَ يَنْخُلُ الْحَنَاءَ بِالْأُجْرَةِ، فَلَمَّا تَرَاهُ إِلَّا مَكْحُولَ الْعَيْنَيْنِ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكْحَلُّ عَيْنِيهِ مِنْ أَجْلِ غِبَارِ الْحَنَاءِ.

أَخْبَرَنِي ابْنُهُ الْحَسَنُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ وَارَثَهُ فِي مَقَامِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ مُحَمَّدٌ. وَمَاتَ ابْنُ جَعْدُونَ وَلَوْلَدَهُ مُحَمَّدٌ أَرْبَعُ سِنِينَ. كَذَا ذَكَرَ لِي أَخُوهُ الْكَبِيرُ الْحَسَنُ، وَفَقَهُ اللَّهُ، بِدَمَشَقٍ وَأَخُوهُ مُحَمَّدٌ حَاضِرٌ بِمِثْلِي بِهَا فِي شَهْرِ صَفَرٍ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتْمِائَةٍ.

وَمِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَشْرَفِ الرُّنْدِيِّ، مِنْ الْأَبْدَالِ، شَيْخُ الْجِبَالِ وَالسَّوَاخِلِ، انْقَطَعَ بِهَا فَلَا يَأْوِي إِلَى مَعْمُورٍ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً. كَانَ قَوِيَّ الْفِرَاسَةِ كَثِيرَ الْبُكَاءِ طَوِيلَ الْقِيَامِ دَائِمَ الصَّمْتِ، كَثِيرًا مَا يَنْكُتُ بِأَصْبَعِهِ فِي الْأَرْضِ

مُطَرِّقًا مُتَفَكِّرًا، يرفع رأسه فيتنفّس الصُّعْدَاء، لصدره أزيز، شديدُ الوجد غزيرُ الدمعة. صاحِبته وعاشرُته زمانًا، كان إذا وقعت عينُه عليّ فرح بي واستبشر. خرج عن مال كثير وافر، كان من أعين من في موضعه.

خرجت وقتًا من مدينة شدونة أريد الساحل في طلب الرجال، فتبعني شابٌ لا نَبات بعارضيه يُريد صُحبتي، فأخذته معي. فقام أمامي شخصان، الواحد أَسمر طويل يقال له عبد السلام السائح، يجول في الأرض لا يقرّ له قرار، ومعه آخر يقال له محمد بن الحاج، من بني جواد. وكانا يمشيان مشيًا سريعًا، فلحقتهما وكان بيني وبينهما خمسة أميال، فمررتُ عليهما مستعجلاً. وكان يوم الجمعة فأوَّيت إلى قرية يقال لها روضة من أجل صلاة الجمعة. فدخلت مسجد الجماعة وركعت ركعتين، وهو موضع يطرّقه الصالحون؛ رباط حسن له بركات مشهودة. فاتفق لي بها قصّة، فلم ألْبث أن جاء هذا أبو عبد الله بن أشرف. فلما دخل قام إليه ذلك السائح وصاحبه فسَلَّمَا عليه وعرفاه وأنا مضطجع في الجامع أضرب بيدي على صدري وأُعْثِي:

صاحكٌ عن جُمان	سافرٌ عن بدر
ضاقَ عنه الزمانُ	وحواه صدري

فجاء إليّ وأقامني وقال "أتريد أن تَسْتَر نفسك؟" فقلت له "وكذلك تفعل أنت!" وكان كما قلته. فأقبل إليّ شيخُ القرية ورغب أن أفطر عنده أنا ومن شئت، فقال لي ابن أشرف "لا تأكل من هذا الطعام شيئًا، واحمل جميعَ الفقراء، فإذا أكلوا تأتي وتُفطر معي!" فكان ذلك. وأخبرني بأمور كثيرة ووعدني أن ألقاه بإشبيلية، فأقمتُ عنده ثلاثة أيام وانصرفت. أخبرني بكل ما يتفق لي بعد مُفارقته حرفًا حرفًا، فكان كذلك.

فلما وصلتُ إلى إشبيلية أقام الله بخاطري الرحلةَ إليك لأراك وأنتفع بك، وكان ذلك يومَ الثلاثاء، فشاورت الوالدة في السفر فأذنت. فلما كان في غدٍ قرع إنسان عليّ الباب فخرجت فوجدت إنسانًا من البادية فقال "أنت محمد بن العربي؟" فقلت

له "نعم" قال "كنت أمشي بين بلجانة ومرشانة بالأمس - اثني عشر فرسخا من إشبيلية- فلقيني رجل له هيبة وهمّة فقال "أنت تسير إلى إشبيلية؟" قلت "نعم" قال "سَل عن دار محمد ابن العربي واجتمع معه، وقل له: صاحبك الرندي يُقرئك السلام، وهذا كان طريقه إليك، ولكن خطر لك الساعة أن ترحل إلى تونس؛ فسر مسلما، عافاك الله! واجتماعنا إن شاء الله إذا وصلت إشبيلية" فكان كما قال. ورحلت أنا في اليوم الثاني لزيارتكم وغبت عن موضعي. ويوم وصولي أو ثانيه اجتمع بي وبِت معه في دار أبي عبد الله القسطلبي.

وكان سبب شهرته رضي الله عنه أنه كان كثيرا ما يقعد في جبل شامخ على مورور. فمشى بعض الناس فيه بليل لحاجة، فرأى عمودا من نور قائما يتشعشع، لا يستطيع النظر إليه. فقصده فوجد ذلك النور صاحبنا أبا عبد الله وهو قائم يصلي؛ فأشهره.

كان يحترف بجمع البايبا في الجبال ويأتي بها إلى مصر يبيعها وينصرف. له غرائب وعجائب عاينتها. لقيه القطّاع وهو على عين قاعد فقالوا له "ألق ما عليك من الثياب أو تموت!" فبكى وقال "والله لا أحسنت عونكم على معصية؛ إن أمرتم بشيء فافعلوه!" ثم أخذته غيرة في دين الله، فنظر إليهم نظرته المشهورة ففرّوا! سألني يوما بالساحل عن قوله تعالى ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ فلم أجبه وتركته. فاجتمعت به بعد ذلك بأربع سنين فقلت له "يا أبا عبد الله" قال "نعم" قلت "خذ جوابك" قال "هات، بعد أربع سنين؛ وصل الوقت!" فأجبت فيها وتعجبت من حضوره فيها.

كنت أتمنى أبدا أن يراه صاحبي عبد الله بدرّ الحبشي، فلما دخلت الأندلس معه نزلنا برُنْدَة فصلينا على جنازة، فإذا بأبي عبد الله أمامي فقلت لصاحبي عبد الله "هذا فلان" فسرّ بعضنا ببعض، ودخلت به الموضع الذي نزلت به فقال صاحبي عبد الله "وددت أن أرى من كراماته شيئا!" فلما جاء المغرب وصلينا أبطأ الذي نزلنا عنده

بالمصباح، فقال صاحبي عبد الله الحبشي "أريد المصباح!" فقال أبو عبد الله "نعم" ثم أخذ بيده قبضةً من حشيش من البيت الذي كنا فيه، ونحن ننظر ما يصنع، فضربها بأصبعه المسبحة وقال "هذه نار!" فاشتعل الحشيشُ نارا، فأسرجنا المصباح. وكان يغترف النار بيده من الكانون لحاجة ما، فيمسكها ما شاء الله ولا تعدو عليه. كان من الأميين. سألته عن بُكائه يوما فقال "آليتُ أن لا أدعُوَ على أحد، فأغاضي رجُلًا فدعوت عليه فهلك؛ فندمت على ذلك إلى الآن!" كان رضي الله عنه رحمةً للعالم، وأخباره كثيرة يضيق وقتنا عن شرحها.

ومنهم موسى أبو عمران السدراي، من أحواز تلمسان، كان من الأبدال وكان محمولا، له عجائب وغرائب. كان سبب اجتماعي به أبي قعدت بعد صلاة المغرب بمرتلي بإشبيلية، في حياة الشيخ أبي مدين، وتمتيت أن لو اجتمعت به، والشيخ في ذلك الزمن ببجاية -مسيرة خمسة وأربعين يوما. فلما صليت المغرب تنفّلت ركعتين خفيفتين، فلما سلّمت دخل علي هذا أبو عمران وسلم، فأجلسته إلى جانبي وقلت "من أين؟" قال "من عند الشيخ أبي مدين، من بجاية!" قلت "متى عهدك به؟" قال "صليت معه هذا المغرب؛ فردّ وجهه إليّ وقال لي: إن محمد بن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا؛ فسر إليه الساعة وأجبه عني بكذا وكذا.." وذكر لي ما خطر لي من رغبتي في لقاء الشيخ، وقال لي "يقول لك: أما الاجتماع بالأرواح فقد صحّ بيبي وبينك وثبت، وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك؛ فسكن خاطرك، والموعدُ بيبي وبينك عند الله في مستقر رحمة!" وذكر كلاما خلافا هذا، ورجع إليه.

كان هذا موسى رضي الله عنه من أهل السّعة في الدنيا فخرج عنها ففتح الله عليه في ثمانية عشر يوما، التحق بالأبدال، كان يتبوأ من الأرض حيث يشاء. وشي به إلى السلطان فأمر بتثقيفه فقيّد بالحديد وسير به إليه، فلما قرب من فاس ألقى في بعض

المنازل في بيت وأُففل عليه وبات عليه الحرس، فلما أصبح فُتح الباب فوجدوا الحديد الذي كان عليه مطروحا وما وجدوا أحدا.

دخل فاس وقصد دار أبي مدين شعيب، قرع عليه الباب خرج الشيخ بنفسه وقال له "من أنت؟" قال "أنا موسى" قال له الشيخ "وأنا شعيب؛ أدخل ﴿لَا تَخَفْ نَجَّوْتِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾!"

أخبرني شَيْخِي أَبُو يَعْقُوبَ الْكُومِي عنه أنه وصل جبل قاف المحيط بالأرض فصَلَّى الصُّحَى بِأَسْفَلِهِ وَصَلَّى الْعَصْرَ عَلَى ذِرْوَتِهِ، سئل عن ارتفاعه في الهواء فقال: مسيرة ثلاثمائة سنة! وأخبر أن الله قد طَوَّقَ هذا الجبل بِحَيَّةٍ اجتمع رأسُها بذنبِها؛ من أعظم المخلوقات! فقال له صاحبه الذي كان معه "سَلِّمْ عَلَى هَذِهِ الْحَيَّةِ تَرَدُّ عَلَيْكَ!" قال موسى: فسلمت عليها فقالت "وعليك السلام يا أبا عمران، كيف حال الشيخ أبي مدين؟" فقلت لها "وأنتى لك بمعرفة أبي مدين؟!" فقالت "عجبا؛ وهل على وجه الأرض من يجهل حال أبا مدين؟! إن الله مُدَّ أَنْزَلَ حُبَّهُ إِلَى الْأَرْضِ وَنَادَى بِهِ عَرَفْتُهُ أَنَا وَغَيْرِي؛ فَلَا شَيْءَ مِنْ رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا وَيَعْرِفُهُ وَيُحِبُّهُ!"

دخل هذا موسى أرضا رأى النمل فيها على قدر المعز، عجيبة الخلق! لقي عَجُوزًا خُرَّاسَانِيَّةً بِالْبَحْرِ وَاقِفَةً عَلَى الْبَحْرِ وَالْأَمْوَاجِ تَصْطَفِّقُ بَيْنَ سَاقَيْهَا، وَهِيَ تَسْبِّحُ اللَّهَ وَتَقْدِّسُهُ. شَأْنُهُ عَجِيبٌ وَحَدِيثُهُ طَوِيلٌ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

ومنهم أبو محمد مخلوف القبايلي، سكن قرطبة حتى مات، عن إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. حَمَلَتْ إِلَيْهِ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فَدَعَا لَهُ وَأَمْسَكْنَا عِنْدَهُ مِنْ غُدُوءَةٍ حَتَّى صَلَّيْنَا الْعَصْرَ وَأَكَلْنَا طَعَامَهُ.

كنت إذا دخلت بيته أخذك الحال قبل أن تراه، فإذا رأيته رأيت منظرا عظيما؛ عليه ثوبٌ صوف. كان ذاكرة على الدوام خلافاً لأوراده، كان له كل يوم خلافاً

ذكره كذا وكذا ألف تسبيحة وكذلك التكبير والتحميد والتهليل. كان يعمُّ بدعائه أهل السموات وأهل الأرض، حتى الحيتان في البحر. كان سريع العبرة دائم العبرة. أراد أن يحفر بئرا في داره فسبق له عِلَجٌ مأسور ليحفره فقال رضي الله عنه "إن هذا العِلَج قد خدَمنا فنسأل الله في إسلامه!" فخلا بنفسه ليلته يسأل الله فيه، فلما أصبح أقبل العِلَج لشُغله وهو قد أسلم، فسئل عن سبب ذلك فقال "رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وأمرني أن أومن به فآمنت وقال: بشفاعة أبي محمد مخلوف فيك قبلتُك!" أو كلام هذا معناه.

تركته في عافية وانصرفت إلى منزلي، فلما جاء الليل وأخذت مضجعي رأيت في المنام كأني بأرض واسعة وسحاب يدنو، فيها سهيل الخيل وقَعْقعة اللُجَم، فأرى أشخاصا رُكبانا وعلى أقدامهم، فيترلون في ذلك الفضاء، حتى امتلأ بهم الفضاء؛ ما رأيت قط أحسنَ وجوها منهم ولا أنقى ثيابا ولا أحسن من خيلهم. وكنت أرى فيهم رجلا طويلا في الرجال عظيمَ اللحية أشيبَ، يده إلى خده، واسع الوجه أوجنَ، فكنت أخاطبه من بين الجماعة كلُّها أقول له "أخبرني ما هذا الجَمَّ الغفير؟" فيقول لي "هؤلاء جميع النبيين، من آدم إلى محمد عليهم السلام؛ ما بقي أحدٌ منهم إلا نزل!" فقلت "مَن أنت فيهم؟" فقال "أنا هوذُّ صاحبُ عاد" فكنت أقول له "فيم جئتم؟" فيقول "جئنا عَوَّادا زائرين إلى أبي محمد مَخْلُوف!" ثم استيقظت، فسألت عن أبي محمد مخلوف فوجدته قد مَرِض من تلك الليلة، فلبث أياما ومات رحمه الله تعالى.

ومنهم صالح الخراز. كان بإشيلية من أهل الورع والجِد في العبادة والاجتهاد؛ أقبل على العبادة وهو ابن سبع سنين أو دونها. كان مبهوتا أبدا، ما لعب قط مع الغلمان ولا كلمهم. تعلَّم الخرز من أجل ورعه حتى يأكل من عمل يده، كان له والدة وكان بَرًّا بها. نسخ بيده على صغر سنه كتاب ابن العسال الكبير، ولازم العزلة. كان طويل الصمت، يقول أصحابه الذين كانوا معه: ما كلمنا قط إلا فيما لا بد منه!

عاشرته وأحببته وأحببني. كان إذا قال قولاً لا يرجع عنه لأنه لا يقول إلا عن صدق. لا يقضي حاجة أبداً ولا يعمل شغلاً قط لمن يعرف منه أنه يراه بعين التعظيم. أكثر شغله إنما كان مع الغرباء الذين يطرقون المدينة لا يعرفونه ولا يعرفهم.

قصد إليه بعض أصحابنا بنعله، وقد قطعه عمداً، ليجد سبيلاً إلى مكالمته. فسلم عليه فردّ عليه السلام فقال له "هذا نعلي احرزّه!" فقال له "إن هذا النعل بيدي أصلح شأنه لصاحبه وقد دفع إليّ أجره" - وأنا واقف بحيث لا يراني - فقال له "أمسكه عندك حتى تفرغ من هذا النعل وتصلحه" فقال "لعلي أموت قبل ذلك! ترى غيري دون شغل، ادفعه له" فقال "ما أريد أن يصلحه أحدٌ إلا أنت!" قال "قد قلتُ لك ما سمعت!" واشتغل بذكره، قال له "تراني أقعد هنا ونعلي عندي حتى تُتمّه وتصلحه؟" قال "ذلك لك إن شئت ولكن حتى أعرفك بأجري عليه" قال له "قل" قال "أجري عليه ثمن درهم" قال له الرجل "أنا أدفع لك ربع درهم" قال "ما يساوي!" قال له الرجل "ذلك مني مسامحة" قال "غيري أحوج إليه مني إن كنت تعطي لله، فإني قد أخذت قوت اليوم!" قال "لا بُدّ من ذلك!" قال له "قد صدّعتني يا إنسان، سرّ عني؛ لا أعمل لك شغلاً!" وأقبل على ذكره وشغله.

فرجع الرجل إليّ منكسراً القلب، فقلت له "لقد طوّلتَ عليه؛ ارجع إليه مرة أخرى وقل له: أحرزه لي ابتغاءً ثواب الله، لا أدفع لك عليه شيئاً!" فرجع إليه فقال له ذلك فنظر إليه ساعة وقال له "أنت مرسول!" ثم التفت وأبصرني فقال له "أترك نعلك وانصرف عني، فإذا كان العصر فأتني، فإن وجدتني حياً دفعته لك وإن وجدتني ميتاً فتراني أوصي لك به هذا الجار" ثم التفت وأشار إليّ فأقبلتُ إليه فقال "هكذا تفعل الأصحاب؛ يقابلون إخوانهم بما يسوؤهم؟! لا تعد لمثلها؛ ولولا ما جعل الله لك في قلبي من الألفة ما رأيتك! ولكن استر علي!" فلم أعرف بعد ذلك أحداً بحاله رضي الله عنه. انتقل إلى سكّنى البادية بأحواز رُنْدَة، يبتغي الانفراد والعزلة.

ومنهم عبد الله الخياط، أو القراق، لا أدري. اجتمعت به بجامع العديس بإشبيلية، وهو ابن عشر سنين أو إحدى عشرة سنة، وهو ذو طمرين منتقع اللون كثير الفكر شديد الوجد والتوهُ. كنت قد فُتِح لي في هذا الطريق وما علم بي أحد، فأردت الموازنة معه. فنظرتُ إليه فتبسّم ونظر إليّ، وأشرت إليه وأشار إليّ؛ فوالله ما رأيت نفسي بين يديه إلا كدرهم زائف! وقال لي "الجدّ الجدّ، طوبى لمن عرّف ما خُلق له" وصلى معي العصر وأخذ نعلَه وسلم علي وانصرف. فذهبت أتبّعه أعرِفَ منزله فلم أجد له أثرا، فسألت عنه فلم أجد أحدا يخبرني عنه، فما بقيت في راحة دونه، ولم أره بعد ذلك ولا سمعت به إلى الآن؛ فمنهم صغير ومنهم كبير إحدى عشرة

ومهم أبو العباس أحمد بن همام، من أهل إشبيلية. ألهمه الله رشد نفسه وأقبل على العبادة قبل أن يبلغ الحلم، وكان ذا جدّ يكيّ أبدا على نفسه كأنه الثكلى على وحيدها. كان له والد يحول بينه وبين طريق الله، فلما اشتدّ ذلك عليه قال لي "يا أخي اشتد عليّ الأمر وقد طردني أبي وقال لي: سر حيث شئت! وأنا أريد الخروج إلى ثغور المسلمين تُجاه العدو؛ أربط بموضع منها حتى أموت" فمشى إلى ثغر منها يقال له جلمانية ولم يزل بها حتى الآن. وصل إلى إشبيلية بعد ذلك ليأخذ أسبابا يحتاج إليها ورجع يربط بها. كان أبدا ملازما في دار أبي عبد الله الخياط الذي تقدم ذكره، رضي الله عن جميعهم وعنا.

ومنهم أبو أحمد السلاوي، وصل إلينا إلى إشبيلية وأنا في تربية شيخنا أبي يعقوب. كان هذا أبو محمد رحمه الله قويّ الحال، صحب أبا مدين ثماني عشرة سنة، كان كثير الاجتهاد والعبادة شديد البكاء.

بِتُّ معه شهرا كاملا بمسجد ابن جراد، فقامت ليلةً أريد أن أصلي فتوضأت وحثتُ إلى مُسَقِّفِ المسجد، فرأيتُه نائما عند باب المسقف والأنوار متَّصلة منه إلى السماء، وبقيت واقفا أنظر؛ فلا أدري أَمِنَ السماء نزلت عليه تلك الأنوار حتى اتَّصلت به أو منه انبعثت حتى اتصلت بالسماء؟ فلم أزل واقفا عليه أتعجَّب من ذلك حتى استيقظ وتوضأ وقام يصلي.

كان إذا بكى أخذ الدموع إذا سقطت من عينيه على الأرض، فأمسح بها وجهي فأجد فيها رائحة المسك، فأأخذها طيبا يشمُّها الناس عليّ فيقولون "هذا المسك عظيم؛ أين اشتريته؟"

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن طريف القيسي الجزيري، شيخ أبي عبد الله القرشي الذي كان بديار مصر، رضي الله عنهما. كان سَمَحَ الخُلُقِ لِنِ الجانِبِ قائلا بالحق لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ من أهل الجِدِّ والاجتهاد. كان يَحِنُّ إلى العزلة ولا يقدر عليها من أجل الحِرْفَةِ، كان يبيع الفَخَّارَ. قَيَّدَ كثيرا من كتب الطريق، كانت المعاملة غالباً عليه، يحب المعارف ويحن إليها.

كان سبب موته أن رجلا مرَّ به فقال له "يا سيدي مرَّ عليك فلان؟" يسأله عن إنسان من أهل البلد وكان ذلك قد ابتلاه الله في عنقه بداءٍ نَسَمِيهِ عندنا نُغْنَعَة. فلم يعرفه الشيخ جيّداً، فألَحَّ عليه الرجل في السؤال فقال له "أراك، والله أعلم، تسأل عن ذلك الرجل صاحب النُغْنَعَةِ في عنقه؟" قال الرجل "عنه أسأل" قال الشيخ: فنناداني الحقُّ في سرِّي "يا إبراهيم، ما تعرف عبادنا إلا بما نبئليهم به؟ ما كان له اسم تذكره به؟ لأُمَيِّتَنَّك بها!" فأصبح وقد خرجت له في عنقه فقاساها يسيرا ثم مات رحمه الله تعالى.

أخبرني بهذه الحكاية ابنه محمد بالحرم وقال لي: قال لي أبي "والله ما غلِطت في مثل هذا النوع منذ عشرين سنة!" قصدته في بلده مرتين وكان يجيني واجتمعت به مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي في سبتة وفي بلده رضي الله عنه ونفع به.

ومنهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المالقي الفخار، عُرف بالقلفاط. صاحب أبا الربيع الكفيف وغيره، وكان صديقا لإبراهيم بن طريف. كان هذا عبد الله يعمل على طريق الفتيان، ولعمري لقد ظهر فيه وبدت عليه أعلامه؛ ما تراه يمشي قط إلا في حق غيره، لا يلتفت لنفسه ولا لحقها. يقصد إلى البلد والحكام في حوائج الناس، داره للفقراء مباحة. محافظ للشريعة والآداب، مشروح الصدر أكثر من إبراهيم بن طريف، كان ابن طريف عنده جمود. اجتمعت به مرارا عديدة وكان يميل إلى جانبي كثيرا.

اتفق لي يوما بمدينة سبتة، وهو بها مع ابن طريف، أن وجه إلي السلطان أبو العلاء، وفقه الله، مائدتين ولم أكن حاضرا. فأخذهما الفقراء الذين كانوا قد وصلوا إلى الموضع من أحلي وأكلوا، وانقبض خواص أصحابي عنها. فلما كان في الليلة الثانية وجه إلينا كذلك مائدتين، فلم أقبل ولم أرد، وكانوا قد أتوا إلينا فقراء بالقصد من أجل الطعام لما سمعوا أن السلطان يبعث إلينا. فأقمت صلاة العشاء فصليت، فقال بعض الفقراء ممن يدعي التشيخ «لا صلاة بحضرة الطعام» فسكت عنه. فغضب حيث لم أجبه فقلت "أنا لم أقبل ذلك الطعام ولا أرى أن آكله؛ فإنه عندي حرام. ولا يتمكن لي أن آمركم بأكله؛ فإني أحب لكم ما أحب لنفسي!" ثم بيّنت وجه الحرام فيه ثم قلت "هذا طعام حاضر، من استحله أكله ومن لم يستحله تركه!" ودخلت إلى البيت الذي كنت فيه وأدخلت معي خواص أصحابي.

فلما أصبح مشى ذلك ووشى عند الوزير بأي أقول فيهم أنهم أهل حرام وغير ذلك، فاغتاظ الوزير وقال "إن السيد والله هو الذي يتناول توجيه ذلك الطعام بنفسه

ولا يبرح حتى يُحمل أمامه!" وقام لذلك وقعد. فوصلت المسألة إلى السلطان، وكان عاقلا، فقال "نحن ما قصدنا إلا الخير، وهو أعرف بحاله؛ لا نُدخل عليه مضرة ولا ما يسوؤه!" وقبض ذلك عني.

فبلغ ذلك صاحبنا القلفاط فاجتمع بي، وقد خاف علي وعلى أصحابي مما يعرف من البلاد، وعاتبني على ذلك وقال "يا فلان، هذا في حق نفسك حسن. غير أن المضرة تنسحب فيه على الطائفة، وهؤلاء القوم لا يحتملون مثل هذا؛ وقد قال بعضهم: ذل من ليس له ظالم يعضده وذل من ليس له عالم يرشده! فلما رأيت أن الرحمة قد غلبت عليه في حق الناس وتسديد الأمور والأخذ بالأرجح في المصلحة الدنيوية قلت له "بئس العبد لله من يستند إلى عدو الله! لا رعى الله العالم إذا لم يرعوا حق الله؛ حق الله أحق!" ونفضت يدي وقمت وانصرف. فلقيت ابن طريف والخبر عنده فقال لي "السياسة أولى" فقلت له "ما دام رأس المال محفوظا فلا بأس!" فسكت رضي الله عنه.

ولولا التطويل لذكرناهم عن آخرهم، ولكن اقتصرت على هذا المقدار رغبة في الإيجاز والاختصار. وقد أفردت لذكرهم كتابا سميت به 'الدرة الفاخرة' في ذكر من انتفعت به في طريق الآخرة؛ ذكرت فيه مثل عبد الله بن تاحمست، يعدّه أهل إشبيلية من الأبدال، وآخر يقال له السخان كان من الأبدال، فترل وبقي حزينا لا يكلم أحدا؛ كنت إذا لقيته رحمته لما أراه فيه من الكرب الشديد.

ومنهم الشيخ العارف السائح المتجرّد المنقطع الصادق الصالح المُسنّ أبو يحيى بن أبي بكر الصنهاجي. من أهل المعارف والإشارات والتمكين، قل أن يُلقى مثله. بيني وبينه مسائل من الحقائق كثيرة يضيق الوقت عن ذكرها. ألفت من أجله كتاب 'عنقاء مُغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المُغرب'.

ومنهم أبو العباس بن تاجة، من أهل إشبيلية. من المجتهدين، لم يزل المصحف بين عينيه حتى مات رحمه الله.

ومنهم أبو عبد الله بن بسطام الباغي، من أهل باغة. كان من أهل القرآن بالليل.

ومنهم يوسف بن تعزّا بقرمونة، من التالين لكتاب الله؛ لا يتركه القرآن أن يتحدث مع أحد، صوّاما قواما.

ومنهم أبو الحسن القنوبي بمدينة رُنْدَة، من أهل الفتوة والمعارف السبعية.

ومنهم 'اللهم صلّ على محمد' الحدّاد بمدينة إشبيلية، كان مستهترا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دائما لا يفتر.

ومنهم أبو إسحاق القرطبي ببجاية من أصحاب أبي مدين، كان من الموحّدين.

ومنهم أبو عبد الله المهْدَوِي بمدينة فاس، بقيَ نيفا وستين سنة ما استدبر القبلة حتى مات.

ومنهم علي بن موسى بن النقرات بمدينة فاس، كان مجهولا لا يُعرف بهذه الطريقة، غامضا للناس فيها، وكان لديه معرفة تامّة. كانت له فيها فِراسة. كان قلّما يجد من يستريح إليه في هذه الطريقة حتى مات. وكان عند الناس مشهورا بالقراءات والروايات رحمه الله تعالى.

ومنهم أبو الحسين يحيى بن الصائغ بسبته، من المُحدثين وهو صوفي. وهذا من الأعجوبات: مُحدث صوفي؛ كبريتٌ أحمر! له بركات كثيرة، عاشرتة كثيرا ورويت عنه وقرأت عليه، كان زاهدا متجردا.

ومنهم ابن العاص أبو عبد الله الباجي بإشبيلية رحمه الله، كان فقيها زاهدا. وهذا أيضا غريب: فقيهٌ زاهد؛ لا يوجد!

ومنهم أبو عبد الله بن زين اليابري بإشبيلية، كان من أفضل الناس. كثير الجِد والاجتهاد والتقشُّف، كان يقرئ القرآن والنحو بجامع العديس بإشبيلية، لا يؤبه له غامضا في الناس. اعتكف على كُتب أبي حامد؛ قرأ ليلة تأليف أبي القاسم ابن حَمدين في الرد على أبي حامد الغزالي فعَمي. فسجد لله من حينه وتضرَّع وأقسم أنه لا يقرؤه أبدا ويُذهبه، فردَّ الله عليه بصره. كان من فضلاء الناس. لقيت أيضا أخاه مثله، نودي به عند موته "جَتَيْن اثْنَتَيْن لبني زين!"

ومنهم أبو عبد الله القزاز، إمام أهل البلاء بقرطبة، قلَّ أن يُلقى مثله. سألته كيف يطيب عيشه معهم فقال "لا أشمُّ منهم إلا رائحة مسك!" أحفظ من أحواله عجائب.

ومنهم أبو زكريا يحيى بن حسن الحسني بمدينة بجاية، من العلماء العاملين السادة، صاحب زهد وورع ونصيحة. خلوت به يوما عن إذنه فسألته وسألني، فرأيت رجلا الغالب عليه الخوف، له أخبار عجيبة في تقشُّفه وأكله. لقيته مرارا وقرأت عليه من بعض تأليفه.

ومنهم عبد السلام الأسود السائح. لا أدخل قرية إلا قيل لي "من هنا مرّ فلان" لا يقرّ له قرار. سألته عن عدم قراره فقال "أجد حالة طيبة في الحركة".

ومنهم أبو عبد الله القسطلبي بمدينة إشبيلية. من أهل الفضل والجد والاجتهاد والغيرة في دين الله تعالى؛ إذا دخلت عليه في موضعه تنشط للعبادة.

ومنهم أبو العباس أحمد بن المنذر بمدينة إشبيلية، من أهل القرآن والعريية والفقه. جيداً في مذهب مالك. من كراماته إذا اعتاصت عليه مسألة في المذهب يرى مالكا يحلّها له. يتعرّض إليه في داره الروحانيون والرجال؛ يسلمون عليه. يضيق عليه الحال فتلقى الدراهم بين يديه فيأبى أن يقبلها ويردّها، فترفع عنه. غلب عليه الورع، مباركاً صالحاً.

ومنهم موسى بن أبي عبد الله المعلم بمدينة فاس، وهو من قلعة بني سعيد من نظراء إغرناطة. وابنه عبد الله نشأ صالحاً لا يعرف المعصية؛ هو الشاب التائب لا تُعرف له صبوة، حافظ لكتاب الله تعالى.

ومنهم أبو العباس الخراز. لقيته بمكة. صحب عبد الله المغاوري ويحكي عنه. انتفعت بدعائه ورأيت له بركة، رحمه الله تعالى.

ومنهم الحاج أبو محمد عبد الله البرجاني، صاحبك وصديقك، رضي الله عنه. يحب السنة وأهلها. كان صالحاً جليل القدر كثير السكون. سمعته يوماً يقول في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ "لَمْ تَلَوْهُ هؤُلاءِ حق تلاوته؟" فقلت

له "قل يا أبا محمد؛ السؤال منك والجواب منك!" فتبسّم وقال "لأنه آتاهم، فسبقت لهم العناية؛ فلما أُعطوا أعينوا" وهذه إشارة بديعة تحتها بحور تزخر لمن نظر وتفكّر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الإمارة «إن أُعطيَتْها أُعِنْتُ عليها، وإن طلبَتْها لم تُعَنَ عليها!»

ومنهم أبو عبد الله محمد النابلي، الساكن بدار القير، خديمك الذي فتح الله له على يدك. بركائك عليه كانت ظاهرة. رأيت له أموراً عجيبة كنت أُسرُّ بها، لا يتسع الوقت لذكرها.

ومنهم أبو عبد الله المُرابط، من أهل القرآن والليل. ظهرت عليه أنوارك، جيّد الذهن سريع الفهم.

ومنهم أبو وكيل ميمون بن التونسي، كان يجمع القرمز يعيش منه. مرض عندنا بإشبيلية فأخذته الصالحة زينب امرأة ابن عطاء الله لثمرّضه في دارها بنفسها، فلما انتقل عندها مات من ليلته. كان من رجال الله تعالى.

ومنهم أبو محمد عبد الله بن خُميس الكتاني، جرائحي بمدينة تونس. لقيته بحرسه كما تعرف، وزرته فيه حافيا على قدمي في شدّة الحر تأسّياً بشيخي أبي يعقوب وأبي محمد الموروري؛ قالوا لي أنهما زاراه على هذه الحالة. له بركات وحسي علمك بحاله.

ولقيت بمكة الأشخاص السبعة، نفع الله المسلمين بهم، جالستهم بين حطيم الحنابلة وصفة زمزم. وهم خاصّة الله حقاً لا يطرفون، قد علتهم السكينة والهيبة.

لقيتهم وهم في حال المشاهدة، فلم تقع بيني وبينهم مكالمة في معرفة. ولقد رأيت من سكونهم ما لا يتصور أن يسكنه أحد.

ومنهم شمس أمّ الفقراء، بِمَرشاة الزيتون. اختلفت إليها مرارا، ما لقيت في الرجال مثلها في الحمل على نفسها. كبيرة الشأن في المعاملات والمكاشفات، قوية القلب، لها همة شريفة، لها التمييز. تسر حالها جدا، كانت تُبدي منه في السر أشياء إليّ لما حصل عندها منّي من المكنة، وكنت أفرح بذلك. لها بركات كثيرة ظاهرة، اختبرتها مرارا في باب الكشف فوجدتها متمكنة. الغالب عليها الخوف والرضا، وتحصيل هذين المقامين في وقت واحد عندنا عجيب يكاد لا يتصور.

وكذلك لقيت ثونة فاطمة بنت أبي المثنى بإشبيلية، أدركتها في عشر التسعين، قد أسنت. لا تأكل إلا مما يطرح الناس على أبواهم من الأطعمة، قليلة الأكل جدا. كنت إذا قعدت معها تحدثني أستحيي أن أنظر إلى وجهها من عظيم تورّد وجنتيها ونعمتها، وهي في عشر التسعين سنة!

كانت سورتها من القرآن 'الفاتحة'، قالت لي "أعطيت الفاتحة أصرفها في كل أمر شئت!" بنيت لها بيدي، وصاحبان لي، بيتا من قصب تسكنه. كانت تقول "لا يُعجبني أحد ممن يدخل عليّ غير فلان!" تعني إياي، فيقال لها "بِمَ ذلك؟" فتقول "ما منكم أحد يدخل عليّ إلا ببعضه ويترك بعضه في أغراضه من داره وأهله، إلا محمد بن العربي ولدي وقرّة عيني؛ إذا دخل عليّ دخل بكّله وإذا قام قام بكّله وإذا قعد قعد بكّله، لا يترك خلفه من نفسه شيئا؛ وهكذا ينبغي أن يكون الطريق!"

عرض الله عليها ملكه فلم تقف مع شيء منه، إنما تقول "أنت أنت؛ كل شيء دونك مشؤوم عليّ!" كانت والهة في الله تعالى، من رآها يقول عنها حمقاء فتقول "الأحمق من لا يعرف ربه!" كانت رحمة للعالم.

ضربها أبو عامر المؤذن بالدرة في الجامع ليلة العيد فنظرت إليه وانصرفت متغيرة النفس عليه. فباتت تلك الليلة، فلما كان السحر سمعت ذلك المؤذن يؤذن فقالت "يا رب لا تؤاخذني، تغيرت نفسي على رجل يذكر في دياجي الليل والناس نيام! هذا ذكر حبيبي يجري على لسانه؛ اللهم لا تؤاخذ به بتغيري عليه!" فلما أصبح دخل فقهاء البلد بعد صلاة العيد على السلطان يسلمون عليه، فدخل ذلك المؤذن في جملتهم رغبة في الدنيا. فقال السلطان "من يكون هذا؟" قيل "مؤذن الجامع" فقال "ومن أمره بالدخول مع الفقهاء؛ أخرجوه!" فصُفِعَ وأُخرج، فشُفِعَ فيه عند السلطان فخلّى سبيله بعدما أراد أن يعاقبه. فقليل لها "اتفق لفلان مع السلطان كذا وكذا" فقالت "علمت، ولولا أني سألت التخفيف عنه لقتل!" شأنها عجيب. ماتت رحمها الله تعالى.

فهذا يا نفسي، قد قصصت عليك حالة من تقدم وحال بعض من لقيته من رجال ونساء، وسكت لك عن كثير ممن لقيت. وما وجدت لك قدما معهم؛ ففي أي نمط تتميزين؟!

انتهى الجزء الثالث

ثم أرجع إليك، يا وليي يا أبا محمد، فإني إنما ذكرت لك هؤلاء فرحا أن الزمان والحمد لله لم يخل من الرجال الجارين على أسلوب المتقدمين باختلاف أحوالهم. فقد ذكرنا منهم ما حصل به المقصود من الفائدة والاختصار، وأما أنت فلا يتمكن لي أن أحاطبك بأحوالك.

ومقصودي بهذه الرسالة إبراز معرفة نفسانية وربانية تحرّض على الكلم الطيب والعمل الصالح، فإن الرجل عندنا كل الرجل إنما هو العالم بالله الكادح. فأحاطبك يا وليي، وأريد والله نفسي، وأنبهك وأريد أبناء جنسي. وعني أكني؛ فلا تغترّ النفس عن الذكرى فإنها الدليّة، ولا تعمى عن حظها الإلهي بتصاممها عن هذه الفضيلة.

مسألة: فمن ذلك ﴿وَذَكِّرْ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ!﴾ و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ لتعلم أن الله تعالى خلق كل ما سوى الإنسان باليد الواحدة، وقد جاء التنبيه عليه في مواضع من الشريعة: في جنة عدن أنها خلقها بيده؛ وهنا بحر طامس. خلق الأسباب كلها بيده وخلق المسببات كلها أيضا بيده، لكن الأسباب الأول ليست في المرتبة كالأسباب الثواني، إلى آخر سبب. فقال في خلقه الأسباب والمسببات ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وقال في الأسباب وحدها ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ! فَيَكُونُ﴾ فذكر الأمر دون الخلق؛ فألق بالكلام في هذا فإنه عويص، وأنا غيور أحب أن أوضح وأحب أن أستر.

فخلق الملك والجنة وما يتعلق بهذا الجنس من الشرف والرفعة بجانب الطور الأيمن؛ فافهم ما أومأنا إليه من صفة الجمال. وخلق إبليس والنار وما يتعلق بهذا

الجنس من الوضاعة والسُّقْل بالجانب الغربي من «كلتا يديه يمين»؛ فافهم ما أومأنا إليه من صفة الجلال.

وتمهدت المملكة باليدين وظهر وجودها في العين على التوحيد المطلق، من حيث أن كل واحد منهم يرجع خلقه إلى يد واحدة؛ فعبد ربّه من حقيقته واشتغل بطريقته، فلم تُتصوّر معصية ولا مخالفة. إلى أن خلق الإنسان بيديه وهدها نجدّه وأوضح سبيليه وأظهر به كلمتيه وأبان به عن قبضتيه.

فنظر إلى العالم، ونظر إليه العالم، في مملكتيه الكبرى والصغرى؛ فعرف كل واحد ما رأى منه، لأنه رأى ما يقابله. فالساكن من العالم في الجانب الغربي رأوا سُقْلَه فلم تقم عندهم قيمته، فظهرت في ذلك قبضتهم ليعلموا أنهم أشقياء. والساكن من العالم في جانب الطور الأيمن رأوا علوّه فقامت عندهم عظمتُه وظهرت في ذلك قبضتهم؛ ليعلموا أنهم سُعداء.

ثم لما كانوا في نور التجريد لم يستطيعوا أن يعرفوا نور التمريح، ولما كانت حقيقتهم صادرة عن اليد الواحدة شهدوا لأنفسهم بالتقديس والتحميد. ولما رأوا توجّه اليدين على الإنسان عرفوا أنه لا بدّ من المنازعة لإمضاء الحكم، وإذا كانت المنازعة؛ فلا بدّ من الفساد. فنظروا حقا وقالوا صدقا، صلوات الله عليهم، فأعرض الله عن إجابتهم في نفس كلامهم إعراضاً صحيحاً من جهة جعلهم الكلّ جزءاً، وحكموا عليه بصفة النقص.

فتركهم الحق وما عدلوا إليه، وأراد أن يبين لهم حقيقة ما فطره عليه، وأن الإنسان هو القبضة الجامعة للعاصية والطائعة، وأن كلّ العالم على النصف منه؛ فهو أيضاً على النصف من الحضرة الإلهية. وأن الإنسان كلّ فهو على الكلّ من الحضرة الإلهية؛ فجمع له بين يديه لتكامل صورته وتصحّ خلافته وتبيّن مرتبته، ويُعلم أنه أشرف موجود وأعلى مقصود. ولهذا مدحه الله لمن نظره بعين النقص بقوله ﴿مَا

مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ؟! ﴿١﴾ في معرض الثناء؛ فعرض في أدبه بغيره، وهو الذي حكم عليه بالفساد وسفك الدماء.

فما أحسن أدبه! عرض في آداب الملائكة بإبليس، فطالبهم بعلم الأسماء وجعل الإنسان عالم العلماء. وعرض في آداب إبليس بالملائكة بخلقه بيديه: المقدسة والبيضاء؛ فأنعظ إبليس بأدبه وآداب الملائكة، وأنعظت الملائكة بأدبهم وآداب إبليس. فهؤلاء اتعظوا بامتثال الأمر ففازوا، وهذا اتعظ بعد المخالفة فما نفعته موعظته وخسر. فلا شيء أنكى على إبليس من ابن آدم، في جميع أحواله وفي صلاته، من سجوده لأنها خطيئته؛ فكثرة السجود وطوله يحزن الشيطان. وليس الإنسان بمعصوم من إبليس في صلاته إلا في سجوده، فإنه إذا سجد تذكر الشيطان معصيته فحزن فاشتغل بنفسه عنه. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يكي». فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان، وليس بمعصوم من النفس. فخواطر السجود كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية خاصة، وليس للشيطان عليه من سبيل. وإذا رفع من السجود غابت تلك الصفة عن إبليس فزال حزنه واشتغل به.

ولعل وليي، رضي الله عنه، يقول: والنفس أيضا تزول في السجود والملك يزول، ولا يبقى إلا الحق، فإنه يقول ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ!﴾؛ فقد صحّت القربة بالسجود وفني الساجد بالموجد عن الوجود.

فأقول له: نعم يا وليي ما نظرت وبحالك ومقامك قضيت، ونحن إنما نتكلم بما تُعطيه الحقائق وكيف ارتبطت الرقائق. ولو كان الأمر على ما قاله وليي، لكان كل إنسان في سجوده بالله عارفا ومعه واقفا، فانيا عن الإحساس بعيدا عن الالتباس، ولم يصحّ منه دعاء ولا ثناء ولا تضرع ولا بكاء؛ فإن التضرع والدعاء نداء على رأس البعد والحجاب. والمُشاهدة للبهت من غير اكتساب. فإن وجد وليي مقام البهت في سجوده، فتلك حالة لا تطرد حكما؛ فإن غيره في سجوده يقول "رب اغفر لي مغفرة"

عزماً! "فهذا مع الملك حتماً، وآخر في سجوده يتحدث مع شريكه في دُكانه حرباً وسليماً؛ فهذا مع نفسه. فإمّا وإما.

رجعنا إلى كلامنا: فأضاف الإنسان إلى يديه ووكل أمره إليه، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، وحجبه عن التوكل عليه؛ فظهر الإنسان لنفسه في نفسه إماماً. فالسعيد من لازم الباب لرفع ذلك الحجاب، والشقي من نبذ ذلك الباب وراء ظهره. فحسبه جهالة ما جهل من أمره، لا ما جهل من غيره.

ولما قام الإنسان خليفة في الأرض دون السماء، لحملها العالمين على السواء. فقد جمعت جميع العالم، وهي أقلّ الأجزاء؛ فمن ولي الأرض فقد ولي السماء والنار والماء والهواء. ومن ولي السماء فما ولي الأرض، وما له من الميزان سوى الرفع وما له نصيب في الخفض. دليلي على ذلك، أيها الولي المالك، أن الأرض تحمل الملائكة الكرام، وليس السماء بمحلّ للشياطين ولا لعوامّ الأجسام؛ ولهذا كانت الأرض حضرة الخلافة ومزلّ الخليفة، والسماوات فردوس من فراديسه ومُنَزَّهاته: مَسْرَحُ روحه القدسي. فإن السماء، وأعني به العالم العلوي، موجود من الرحمة الخالصة، وإن الأرض، وأعني به السفّل حيث أنزل آدم بعد أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، موجودة من الغضب الخالص.

فإن قلت "فهذه الرحمة الظاهرة فيها؟!" فتلك رحمة الإنسان؛ ولهذا إذا لم يبق إنسان عليها زالت الرحمة بزواله، وتوجّه عليها فأعدم عينها وهلك في الهالكين. وانتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان.

فإن قلت "وقبل الإنسان قد كانت الأرض موجودة!" فذلك لحقيقتين: لأن ذلك كان زمان التمهيد للخليفة. والحقيقة الأخرى لحقيقة البرزخية فيها؛ لأنها تشبه العدم لكونها تؤول إلى الفناء، وتشبه دار البقاء لأنها قد وجدت يوماً ما. فهذه النفحة الرحمانية في الوجود هي التي أمسكتها حتى ظهر الإنسان، فافهم. ولا تقتصر بهذا على آدم فحسب، فكل صالح من المؤمنين ومن غيرهم في وجوده قُطِب، ولم يبق إلا

خليفة جائر وخليفة عادل؛ فإما إلى عذاب غير زائل وإما إلى نعيم طائل. ومن هنا وقع الخوف على الخلفاء، وأنا وأنت من جملتهم. فنرجع إلى نفوسنا في هذه الحالة العمياء، ونقيم عليها ميزان القضاء والحكم على السواء، بمربتها التي وجدت لها ومثلتها العالية السناء.

فأقول: يا نفس، يا برزخاً بين الضراء والسرء، اصطفاك الله دون أهل الأرض والسماء، وجمع لك بين يديه؛ إما للشرف الذي لك عنده أو للابتلاء. ومحال أن يكون للشرف، لقبضة الأشقياء؛ وإنما الشرف فيه موطن في مقابلة الخصماء، فلم يبق أن يكون ذلك إلا لمجرد الابتلاء. قال تعالى ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ولم يقل "ليشرفكم" خطاباً يشمل جميع المأمورين والأمرء. فمن نصب هذا المنصب وذهب به هذا المذهب؛ كيف يطيب له معاشه أو يستقر به فراشه، وهو لا يدري بأي اليد من اليدين يحكم عليه ولا بأي العين من العينين ينظر إليه؟!

فواجب عليك، يا وليي، محافظة السر والوقت، مخافة أن تفجأك نظرة المقت وأنت لا تشعر بذلك؛ فتكون عند الناس السعيد المالك وعند الله الشقي الهالك. وحكم الله أمضى وحاكمه أقضى؛ فالويل لمن اغتر ولو بشراً، والويل كل الويل لمن اغتر وهو لم يشتر!

هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصلب القوي الذي ليس للشيطان عليه سبيل، حسب الشيطان أن ينجو منه، نزل القرآن موافقاً لحكمه وأداه أن يقول "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً!" لما يعرفه من إيمانه وعلمه؛ قد جمع بين العلم والعيان وتبرز في صدر مشاهدة الأعيان؛ ليس أحداً من وقته إلى يوم القيامة يبرز أمامه ولا يكون في حالة من الأحوال إمامه: قد اهتز لموعظة أويس القرني خير التابعين هممة وقال ما أداه إليه كشفه المعصوم وعلمه "ليت عمر لم تلده أمه!"

فكيف ينبغي أن نقول أنت وأنا، إلى متى هذه القحة على الله تعالى، أما أن لنا أن نرجع، أما حان لنا أن نزعوي ونقلع، وقد دُعينا بالعارفين بالله ونحن في حزب

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾؟! أترضى لنفسك أن تكون صاحبَ حالٍ فيَحْكُمَ عليك هواك وتغلبُ عليك دُنياك ويُلبَّسَ عليك أن ذلك من مَولاك؟! هلاَّ أقمنا عليها ميزانَ العدلِ وطالَبناها بِصِحَّةِ النَّقْلِ؟! فإنها لا تخلو في اتِّساعها في دنياها بعد ضيقها، وراحتها بعد جُهدها، من أحد أمرين: إما أن تكون في ذلك تسرُّ مقامها عن الناظرين وتُعَمِّي مكانتها عن أبناء الدنيا العاكفين وتُصول بذلك على المُتَرَفِّين وتسعى في الكسب حتى لا يكون عليها يدٌ لأحدٍ من المحجوبين؛ فإن كان ذلك، فيا جهلَ هذه النفسِ وبيا حسرتها، فلا حال لها ولا مقام! عظمت الدنيا وأبناؤها في عينها فصادمتهم وقابلتهم. وأين هي من «جناح البعوضة» ومن تشبيه النبوة لها بالمزبلة والجيفة؟! إلى هذا بلغت منزلة هذه النفس الركيكة، مع دعواها أنها السيِّدة المليكَة -إن كانت تقول الحقَّ وعزمت على مُصادمة الدنيا ومُقارعة أبنائها.

فاستند إلى الحق في حرق العوائد؛ فإن الناس كلَّهم يُنفقون من الجيب وصاحب الحال إنما ينفق من الغيب! فإذا رأيتَ نفسَكَ تُحيد عن ذلك فلا تُغَالِطِ وكُن لها المجاهدَ المرباط. ولا تغرَّتْ حالة طرأت عليك في بدايتك، وافقت وقتَ صدق منك، فتتخيَّل أنها أبقيت عليك. والعادة طبيعةٌ خامسة. وما عسى الدنيا وأبناؤها حتى تُنافسهم فيها وتقول "أرى أن لا يأكلوا عندي ولا أكلَ عندهم، ولا يزوروني ولا أزورهم"؟! كلُّ ذلك حظُّ نَفْساني وتلبسُ شَيْطاني.

فإن كنتَ عبدتَ الله لتُعبد، فقد حصل لك أجرك في الدنيا وساء مُنْقَلَبُكَ في العُقبى. وإن كنتَ عبدتَ الله لحظِّ نفسك في الآجل، إما لكونها عبدا: فتُحشر مع النبيين، وإما لكونها أجيرةً الحسنَة بعشرة أمثالها: فتُحشر مع المؤمنين.

فأزور وأزار، وأقصد وأُقصد؛ وهذا حال النبي صلى الله عليه وسلم. كان يزور ويُزار ويحمل الكُلَّ ويُعين الضعيفَ ويُقرِّي الضَّيفَ، ولا يبيت على معلوم ولا يجزع من الفقر.

ألا إن الفقير العارف من لا يبكي غده من أجل رزقه، فكيف من أجل غيره؟! وبهذا تُغالط النفس فتقول "إنما أُمسِك هذا الشيء في حق الغير لا في حق نفسي!" قال الله تعالى يُكذِّبُهَا ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ؛ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ ﴿وَمُحَال أَنْ اللَّهُ يُطْعِمَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُطْعَمَ مِنْ أَجَلِهِ؛ فَمَنْعَ مِنْ ذَلِكَ السَّادَاتِ الْكِبَرَاءِ، وَأَبْقَى ذَلِكَ فِي حَالَةِ الْعَامَّةِ الضُّعَفَاءِ. وَنَفْسِي تَدْعِي الْخُرُوجَ مِنَ الْعَامَةِ، فَقَدْ لَزِمَهَا أَنْ تَخْرُجَ عَنِ السَّعْيِ وَالادِّخَارِ فِي حَقِّ الْغَيْرِ؛ فَإِنَّهُ شَرِكٌ مَحْضٌ وَطَعْنٌ فِي الْقُدْرَةِ! كَمَا أَنَّ الْمُتَسَبِّبَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْجُلُوسِ مَعَ اللَّهِ مَطْعُونٌ فِي إِيْمَانِهِ. فَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْوَاحِدُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ؛ قَدْ بَطَلَ دَعْوَاهَا فِيهِ فِي اتِّسَاعِهَا فِي الدُّنْيَا بَعْدَ تَضْيِيقِهَا.

وإن كان يريد الإنصافَ من نفسه -وهو عند الأكابر مقامٌ نازل، ولكن لهذا أن يفعله فإنه ليس من الأكابر، حيث رأى للدنيا وأبنائها حظًا وقدرًا، فيصول عليهم ويتعزَّز. هَلَّا شَغَلَتْهُ عُبودِيَّتُهُ مَعَ عِزَّةِ اللَّهِ عَنْ عِزَّتِهِ مَعَ ذَلَّةِ الْخَلْقِ؟! لَقَدْ فَاتَهُ حَظُّهُ مِنَ اللَّهِ، نَسَأَلَ اللَّهُ حَمِيلَ الْعَاقِبَةِ-؛ وَهُوَ أَنْ يُطْعَمَ الْخَلْقَ وَلَا يَأْكُلَ مِنْهُ أَلْبَتَّةَ، فَإِنْ أَكَلَ فَلِنَفْسِهِ سَعَى وَلَهَا ادِّخَر.

وأما الأمر الآخر الذي وسَّعت به النفسُ عليها بعد تَضْيِيقِهَا، فهو أَنْ تَتَخَيَّلَ أَنْ ذَلِكَ لَا يُوَثِّرُ فِي مَقَامِهَا وَلَا يَنْقُصُ لَهَا مِنْ مَكَانَتِهَا. وَلَمَّا كَانَتْ غَيْرَ عَامِلَةٍ لِلثَّوَابِ، وَإِنَّمَا عَمِلَتْ لِلْعُبودِيَّةِ؛ فَلَا تُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ رُمِيَ بِهَا إِذَا صَحَّ حَالُهَا مَعَ اللَّهِ. وَلَيْسَ ثَمَّ أَمْرٌ ثَالِثٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

فإن كانت فعلته لهذا، فلا نشكُّ أصلاً في جهلها، ونُعزِّيها في نفسها، لوجوه كثيرة تدلُّ على جهالتها: منها جهلها بالموطن حيث عاملته بما لا يليق به، فإن الدنيا سِجْنُ الْمَلِكِ وهي سِجْنُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْتَ تَدْعِي أَنَّكَ فَوْقَ الْإِيْمَانِ؟! وَأَنَا أَسْلَمْتُ لَكَ! وَلَكِنْ صَاحِبُ السِّجْنِ قَدْ أَرْسَلَكَ إِلَى السِّجْنِ وَأَدْخَلَكَ فِيهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَجَّنَكَ مَعَهُمْ بِمَا حَجَرَهُ عَلَيْكَ؛ فَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَشْرَبَ خَمْرًا وَلَا أَنْ تَكْذِبَ فِي حَدِيثٍ وَلَا أَنْ

تُخْلِفَ وَعَدًا وَلَا أَنْ تَحْلِفَ فَاجِرًا وَلَا أَنْ تَنْكَحَ خَمْسَ حَرَائِرَ، وَتَوَجَّهَ عَلَيْكَ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا تَوَجَّهَ عَلَيْكَ مِثْلَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسْجُونِينَ.

فالحكيم يتنبه ويعرف أن ذلك مَوطِنُ التَّكْلِيفِ، وَقَدْ لَزِمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَلْزِمُهُ وَهُوَ خَارِجَ السَّجَنِ؛ فيقول "هل هنا أحدٌ من حَضْرَةِ الْمَلِكِ مِنْ طُورِي وَمِمَّنْ هُوَ أَرْفَعُ مِنِّي؟" فيجد الأولياء والأنبياء والمرسلين، فيقول "لنا فيهم اقتداء، فهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ" وهذا أكبر الدعاوى! وَأَنَا أُسَلِّمُهَا، وبهذا النظر أمر الله نبيّه أفضلَ الخلق، فذكر الأنبياء وما أعطاهم ثم قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ؛ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ!﴾

فينظر في حال الأنبياء فيجد سيدهم وإمامهم قد اختار الفقرَ على الغنى والذلَّ على العزِّ للمؤمنين، وقد خيره حين نزل عليه إسرئيل فقال «إِنَّ اللَّهَ خَيْرُكَ: إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا» فأشار إليه جبريلُ أن «تَوَاضَعْ!» فقال «نَبِيًّا عَبْدًا» قال عليه الصلاة والسلام «لَوْ قُلْتُ: نَبِيًّا مَلِكًا؛ لَسَارَتْ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً!» فأعطته المعرفة والهمة، حين أشار إليه شيخه بالأوّل، تَمَنَّى الْعِبُودِيَّةَ؛ فَلَا زَمَ الْفَقْرَ وَالذَّلَّ وَالْخُضُوعَ، حَتَّى كَانَ يَشُدُّ الْحِجَارَةَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ.

فهلا اقتدى بهم هذا الشخص، ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا؟! ولو علم أن المراتب في الجنة على قدر المراتب عند الله، لسعى لنفسه ولعقله، ولكان من الملوك في الجنة وعند الله تعالى. ولا كان يتكل على معرفته ويقول بكمال عقله ويبحث إلى الراحة ويكب على الشهوات، ويتنعم في ليل الثياب ولذيق الطعام والشراب، وأخوه المؤمن لا يجد ما يأكل. فيقال له "واسه" فيقول "حتى يخطر لي؛ ما ألقى الله عندي فيه شيئاً" فما أجهله بخواطر الحق! إنما يفعل العارفون ذلك فيمن لم تبد منه حاجة ويظهر عليه الغنى وهو فقير، فيخطر الله للعارف أنه فقير؛ وهو كَشَفَ. وأما من ظهر حاله وبانت فاقته: فذاك الخاطر الذي أعطاك الله فيه وأنت لا تشعر؛ وهي أقوى حجة عليك! فلا يغتر من زاحم الأنبياء بجهله بسليمان ويوسف عليهما السلام ولا بقوله تعالى ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا؛ فَاْمُنْ أَوْ أْمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ!﴾

وأنا أقول مثل ذلك في العارف الذي يرى أن يده عارية في المنع والعطاء، وأن الحساب عنه مرفوع. لكن الموطن يعطيه أنه إذا كسب الدنيا أنه يتأخر عن درجة الذي لم يكتسب ضرورة: في الشفاعة وفي دخول الجنة وفي المتلة عند الله تعالى، وفي الدنيا. فإن الغني يزور الزاهد، والأمراء الصادقون يزورون الفقراء الصادقين.

وهنا سر عال منفوت، أخاف من الفتنة في كشفه وإذاعته فسترته رحمة بالعالم، حكمت علينا به الحقائق. يؤيده من الأخبار «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن» هذا باب الفقير يدعو إلى السكون كسر فقاره فابحث عن السر ولا تُفشه، ولا تعتمد عليه ولا تجعل حقيقته تحكم عليك؛ فإن الموطن لا يُعطيه. ولا تترك حقائق جمّة كثيرة يعطي استعمالها سعادة لحقيقة واحدة يعطي استعمالها إما شقاوة وإما نقصا في المرتبة. فالله الله عليها، كن لها كتما إن وقفت عليها! وقد نبهتك على طرف منها والله المستعان. ويكفي هذا المقدار من الوجه الذي يحتملها هذا الأمر الآخر.

فهذا الابتلاء الذي ذكرناه يوجب علينا الجِد والاجتهاد والتجرد عن الدنيا وأسبابها والتفرغ للعبادة، كما كان الأنبياء والأولياء السادة الثجباء، مثل أبي بكر وغيره، وقد مضى طرف من أخبارهم في أول هذه الرسالة.

وأما إن لم تنظر في خلقه لك بيديه ابتلاء ونظرته شرفا ورفعة، وهو نظر جهل، كما حمل الأمانة لحقيقته ولم يحملها غيره، ولكن قيل فيه ﴿ظُلُومًا جَهُولًا﴾. فلو حملها جبرا لما نُسب إليه الظلم والجهل، ولما حملها اختيارا نُسب إليه ذلك، فاعلم هذا.

وأنا أسلم لنفسي هذا الجهل وأقول لها: إنما خلقت بيديه لشرفك على جميع الموجودات، وجعلك إنسانا ولم يجعلك ملكا ولا شيطانا فتعيشي على النصف من المعرفة. أنظري يا نفس إلى حال من خلقت نشأته على نصف المعرفة كيف قال الله فيهم ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

يُؤْمَرُونَ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾؛ هذا شكرهم على قدر معرفتهم، وهي نصف المعرفة. وأنتِ قد أنشئتِ في مقام المعرفة بكمالها والصورة الإحاطية والاستخلاف الإلهي؛ فكان ينبغي أن يكون شكرُك أتمَّ من شكرهم وزكائك أعظم من زكائهم، لأن معرفتك كليّة، فكان الأولى بك أن تقوم الركعة الواحدة مقام عبادة أهل السماوات والأرض!

فإياك أن تحجب نفسك بأن تقول، يا أخي: كاتبُ هذه الرسالة ما عرّف مقامي ولا من أنا! ما قصدتُك بالكلام وحدك، وإنما تكلمتُ على ما تقتضيه الحقائق. وحصرتها حصراً إحاطياً وكشفتها كشفاً اعتصامياً؛ لم يبقَ ملكٌ ولا رسولٌ ولا نبيٌّ ولا وليٌّ ولا أحدٌ إلا دخل في هذا الحصر! فلا بد أن تكون، يا قارئَ هذه الرسالة، واحداً من هؤلاء الأقسام والطبقات. وأدّع فيمن شئت، فقد سلّمتُ لك، ولو ادّعتِ المَلَكِيّة وحدها أو الرسالة أو النبوة أو ما ادّعتته؛ فالحقائق تحكم عليك قسراً وتردُّك إلى العبودية وإلى الوطن إن عُصمت. وإن خُذلت عَمِيتَ عن الحقائق واستعجلت الآجلة وأجلّت العاجلة، وجعلت غيرك المحجوب وأنت العاقل عن الله المصيب؛ فإذا انقلبت وجدت عملك هباءً منثوراً وطردتَك الحقائق السعاديّة عن باهما وقالت: لا أعرفُك، فإنك ما صحبتي في الدنيا ولا تعرّفتَ إليّ! ودعاك خيالك الفاسد القاصر فرمى بك في سواء الجحيم.

فكيفما نظرت في خلق الحق لك بيديّه: إن كان ابتلاء؛ فلا بُدَّ من الحذر والوزن مخافةً النقص أو التطفيف، وإن كان شرفاً ورفعة فلا بد من الجِدِّ والاجتهاد في الشُّكر. لذا قال عليه الصلاة والسلام «لو تعلمون ما أعلم لبكيتكم كثيراً ولضحكتكم قليلاً!» وكما قال بعض العارفين وقد رأى صوفيّاً يضحك ملء فيه "لا يخلو أن تكون قد بُشّرت بسعادتك أم لا؛ فإن كنت لم تؤمّن، فما هذه حالة الخائفين! وإن كنت قد أُمّنت فما هذه حالة الشاكرين!" فقد ناطَ به الذم من الطرفين في ضحكته. فكيف لو رآه مُتَنَعِّماً مترفّها ويجمع ويدّخر ويُمّتي نفسه بالغرور؟!

وقد تقدّم حديث سلمان الفارسي في وقت ذكره لما فتح الله به على بعض الصحابة والتابعين من كنوز كسرى وقيصر، وأن الله ما اختار ذلك لنبهه بل اصطفاه فقيرا لا يبيت على معلوم في البيت حتى مات عليه الصلاة والسلام، وأشبه هذا.

فإياك يا وليي والمغالطة، فإن الناقد بصير وإليه الأمور تصير؛ وقد مضت العبارات وطاحت الإشارات، وما بقيت إلا تسبيحات. فلا يغترّ العالم بعلمه ما لم يستعمله، ولا يغترّ باستعماله ما لم يُخلص فيه، ولا يغترّ بإخلاصه ما لم يفن عنه! هذه مسألة من تحقّق بها ومعانيها لم يسكن له جأش ولا طاب له عيش؛ يشغله شأنه عن كلّ شأن لما يؤول إليه حاله. فإن قوارع القرآن تُزعج العاقل اللبيب وتنغص حياة الفطن المصيب، مثل قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ؟!﴾ وقوله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى؟!﴾ وقوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ!﴾ وأمثال هذه القوارع والزواجر المتلوة في المحاريب والمحاضر؛ تفرّع أسماعنا آناء الليل وأطراف النهار.

فلا معرفة ثابتة في القلوب، فيردعنا الحياء، ولا خوف فيكفنا الوعيد والتفريع؛ فلا ندري في أي نمط نتميز ولا بأي فرقة نلحق. نسأل الله العافية لنا ولكم وللمسلمين في جميع الأحوال هنا وعند الموت وفي المآل!

ومما يحضّ العقل السليم على الاجتهاد ويحول بين جفنه وبين الرقاد، نظره في أمّهات النعم المترادفة عليه إذا حقّقها. وذلك يا وليي أبقاك الله تعالى، أن أول نعمة عقلتها من ربك إخراجك من العدم إلى الوجود، وقد عدّ هذا المقام عليك من جملة نعمه فقال ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَكَمْ يَكُ شَيْئًا؟!﴾ ثم خاطب بهذا المقام الخاصة الرفيعة من عباده الذين نحن أتباع لهم؛ فقال لنبه زكريا في وقت تعجبه من قدرة الله تعالى على حكم العادة في إيجاد ابنه يحيى ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلُ وَكَمْ تَكُ شَيْئًا!﴾ فإياك أن تتوهم أن هذا الخطاب لزكريا في حق نفسه، لإبطال المعنى فيه. فإن خلق ابنه أعجب من خلقه في حكم العادة، لأن زكريا قد أظهر العلة، فلو أحاله على

خلق نفسه لما أتاه بأعجب مما تعجب منه. وإنما أشار إليه بذلك أن ينظر في أول موجود، وهي الحقيقة الإنسانية، قبل كل شيء. وهي أم الأشياء كلها، وليست من شيء. وهي سبب كل شيء وليست مسببة عن شيء.

لهذا قال له ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾؛ فإن هذا الخلق الترابي الآدمي مسبب عن أشياء نبت عليها عليه الصلاة والسلام بقوله «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» ولا يكون العدم بين أمرين موجودين لانحصاره، والمعدوم لا يوصف بالخصر في شيء. وقال الله تعالى في خلق الجسد الآدمي ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وقال ﴿مِنْ طِينٍ﴾ وهو خلط الماء بالتراب، وقال ﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وهو المتغير الريح، وهو جزء الهواء، وقال ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وهو جزء النار؛ فهذه أمهات الجسد الآدمي، وهي كثيرة، فلا يصح على هذا قوله ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فإنه قد كان شيئا، وانتقل في أطوار العالم من شكل إلى شكل حتى صار على هذه الصفة.

وكذلك قال في جسد ابن آدم كما قال في الجسد الآدمي من توقفه على شيء وأن أصله ذلك الشيء، والصورة عرض فيه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾. وإياك أن تقول "في وقت كنا كذا" "لم نكن كذا" وقد نبت تعالى على أنك هو ذاك وأن أصل جسمانيته من شيء فقال ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وهو الأب إن شئت ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو الابن ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ تتميز في طور آخر ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ تتميز أيضا في طور آخر. وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ فجعلك من شيء، هذا طور، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وهذا طور آخر، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ هذا طور آخر، وكله الإنسان، ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ هذا طور آخر، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ هذا طور آخر، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ هذا طور آخر، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ هذا طور آخر؛ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أثني على نفسه يعلمك صورة الشاء عليه لتشكره

لا لتكفُّره. وهذا كله إنما ذكره ليعُدَّ نعمته التي اختصَّك بها وحباك، وهذه كلها أشياء علَّق وجود بعضها على بعض.

فقلْه، على ما تعطيه الحقائق ويُعظَّم التعجُّب عند زكريَّا عليه السلام، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ إنما يُشير إلى البروز الأوَّل من غير شيء؛ لأن زكريَّا إنما تعجَّب من بُشراه له تعالى بيحيى على كبره وامرأته عاقِر، فذكر له ما هو أعجب من ذلك، وهو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود. فإن الثَّقلَة في مرَّاتب الوجود، من وجود إلى وجود باختلاف الصُّور والأحوال، أهون من إبراز المعدوم؛ فلهذا كان أعجب مما تعجَّب منه زكريَّا.

ومن هذا تعجَّبت امرأة إبراهيم عليه السلام حين بُشِّرت بإسحاق عليه السلام فقالت ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟! إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ!﴾ وهذا يا وليي، إذا نظرته، من الأسرار العجيبة؛ فتنَّبه له عسى تعثر على الفضل بينهما. وذلك أن الله قد أخبرنا عن زكريَّا بما أخبرنا عن امرأة إبراهيم عليهم السلام، فشرك بين المرأة والرجل في هذا التعجُّب؛ فشرك بينهما في العلم. لأن التعجب على قدر العلم، ومعلوم فضل الرجل على المرأة في الميراث والشهادة والصلاة والصيام ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

وهذه المسألة مسألة مُفرِّعة لتعلُّقها بباب المعرفة؛ قد اشترك فيها نبيُّ الله زكريَّا وامرأة إبراهيم، وليست بكاملة. فحقَّق نظرك، يا وليي، في هذه المسألة عسى تعثر عليها. وكنت أذكُّرك وجه الفضل بينهما وأبينه، ولكني رأيتك تحبُّ أن تأخذ العلم من ربِّك، فتأدِّبتُ معك وأبقيتها مُهمَّلة. قال الله تعالى جوابا لزكريَّا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ وقال تعالى جوابا لامرأة إبراهيم ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟﴾ وقد لوَّحنا لك وألقيناك على الطريق فادرِّج عليها، فإنَّ ما بينك وبين العلم بها إلا كلمة واحدة؛ وهذا غاية ما قدرنا عليه في حقِّك من تقريب المسألة إلى هذا الحد، وسترناها خلف حجاب واحد رقيق. والخطاب على قدر العقل؛ فانظره.

فهذا يا وليي أولُ نعمة أنعم بها عليك؛ لو كلفك الله شكرَ هذه النعمة وحدها وجعل معك أهلَ السماوات والأرض بعبادتهم مُؤيدين لك عُمرَكَ الأخرَوي الذي لا نهايةَ له، ما قمتَ بشكرها. كيف وقد انضاف إليها نعم كثيرة غيرها؟! ثم طألك في الشكر والعبادة على قدر استطاعتك خاصة، فأبیتَ الإنصافَ وتكاسلت وتخاذلت وتعاميت وتصاممت. ما هذا ممن يدعي العقلَ والمعرفة بحسن؛ إنما يقع الاعتراف بالتقصير بما ينبغي لجلال الحضرة من الاجتهاد بعد بذل المجهود!

وإياك وشطحة مَنْ شطح لسُكر غلب عليه فقال "إني أغار على الجمال القديم أن يراه المُحدث من تدنيس رؤيته" فهذه كلمة ليس لها مدخل في الرجولية، وإنما هي شطحة من صورة وقف القائل معها، تردُّها الحقائق. أو تغترَّ أيضا بقول القائل "من ظنَّ أنه بالجهد يصل فهو مُتَعَنٌ" فقد قال هذا أيضا "ومن ظنَّ أنه يصل بغير الجُهد فهو مُتَمَنٌ" فقد أشار لك إلى ما ندبناك إليه من بذل المجهود وصحة القصد، ولا وُصولَ لشيء إلا برحمة الله. قال تعالى في المتمني ﴿وَعَزَّكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ فذمه، وقال في المتعني ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فمدح المتعني.

فإن كان ولا بد من الدعوى فالتعني أولى، وإن أسقطت الدعوى مع وجود التعني وعدم الالتفات إلى نتائجه، إنما يكون خاليا من جميع أعماله وهو فيها متعرِّض لنفحة من نفحات الربوبية. لأن العبادات بحكم التسخير إنما هي للفقهاء العامة الذين أعماهم الله عن الحقائق فقليل لهم "قدِّموا لتجدوا" وهؤلاء هم الجهال عندنا، وعليهم توجُّه التكليف مطابقا لاسمه، فيدخل عليهم في أداء العبادات من الكلفة والمشقة ما لا يعلمه إلا الله. وذلك لعدم معرفتهم بمعبودهم ولاشتغالهم بشهوات نفوسهم وحظوظها عاجلة وآجلة.

وأما هذه الطائفة الصوفية المحققون فعبادتهم لا بحكم التسخير، لكن من طريق الشكر، بشاهد الفناء عن ملاحظة العمل ونتائجه. فلم يقدموا أعمالا ليجدوها ويلحقوا بها وإنما عملوا لأن السيد قال لهم ﴿اعْمَلُوا﴾ فلهم العمل والطرح وللسيد إن

شاء القبول وإن شاء الردّ. فهؤلاء توجّه عليهم التكليف وارتفع عنهم معناه، أي ما فيه من الكلفة والمشقة، لقوة معرفتهم بمعبودهم واشتغالهم بحقوق معبودهم عن حقوق نفوسهم. فلم يُتصوّر لهم أن يطلبوا أجراً، إنما هو في كل نفس مشغل بما كُلف في ذلك؛ فهو يَجِبِي والباري تعالى يدّخر له.

والفقيه الضعيف الجاهل صاحب علم الرسوم، الذي قد ختم الله على قلبه بشهواته، فتراه يلتفت يمينا وشمالا في صلاته ويُحرم الإمام ويبقى هو بعده بقدر ركعة في حضور نيته للصلاة، لكثرة شغله عنها بمذيانه ودنياه وكثرة غفلاته. ثم يكرر التكبير مرتين وثلاثا وأربعا لشكه في النية، وذلك لعدم صفاء قلبه وترادف ظلماته. فإذا سهّل الله عليه وأدى ما كلفه تعالى، وهذه حالة المجتهد الحازم، وساق هذه الجباية المسوّدّة الوجه بعدم الحضور فيها مع الله وسوء ظنه بربه. كيف يكون له ذلك العمل مدخرا عند الله حتى يجده عنده تعالى لعدم تطلعه إلى فضل الله عليه فيه؟ فيجنح إلى عمله؛ وهذه كلها غلالات فاسدة. ولكن كما قال الله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾. فلذلك أكثر الشريعة تجري عليهم رحمة بهم لضعفهم، وهم في عماية عن ذلك. بل من عظيم جهلهم أنهم ما عقلوا عن الله رحمته هذه بهم، وتخيّلوا أنهم إذا فعلوا هذا واقتصروا، أنه لا شيء أعلى منه والخلق دونه، لحفظه الحديث والفقه. ويقال له: يا فقيه، ما تقول في رجل حلف على كذا وقال كذا؟ فيحكم فيها بحكم الله المشروع، ويحبّه ذلك المنصب عن القلب المختوم عليه بحب الدنيا وتعظيمها ونظره الفقراء وأولياء الله بعين الازدراء والجهل، لكونهم لا يعرفون مسائل العتق والطلاق والنكاح؛ فهم عنده الأغمار الجهلاء. فهذا وأشباهه حجبهم عن الله وطردهم عن بابه، وما زالت الفقهاء في كل زمان مع المحققين بمزلة الفراعنة مع النبيين.

ثم تنتقل يا وليي إلى الأم الثانية من هذه النعم الثابتة، وهي أن تنظر إلى أنه أوجدك متغذيا ناميا ولم يجعلك جمادا صلدا. وإن كانت الحجارة والجمادات عندنا على خلاف ما يراها الناس كما قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

الأنهارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿فَوَصَّيْنَاهَا بِالْخَشْيَةِ وَغَيْرَهَا، وَقَالَ تَعَالَى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وَقَالَ تَعَالَى لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿إِنِّي طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا! قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وَقَالَ ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أَي رَجَّعِي مَعَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَسِيرِي مَعَهُ، وَقَالَ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا كَانَ يَسْلُمُ عَلَيَّ» وَقَالَ فِي أَحَدٍ «هَذَا جَبَلٌ يَجْبُنَا وَنَجِبُهُ» وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ «ثُوبِي حَجْرًا، ثُوبِي حَجْرًا!» يناديه، وَسَبَّحَ الْحَصَى فِي كَفِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فَالْجَمَادَاتُ عِنْدَنَا عَالِمَةٌ بِاللَّهِ نَاطِقَةٌ بِهِ تَعَالَى فِي عَالَمِهَا، عَلَى حَسَبِ أَفْقِهَا وَفَلَكَهَا، وَلَهَا نَذِيرٌ مِنْ جَنْسِهَا، وَهِيَ عِنْدَنَا أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ. وَلَكِنْ الْأُمَمُ قَدْ فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

فَكَانَتْ الْقُدْرَةُ مَتَمَكِّنَةً، لَمَّا أَوْجَدْتِكِ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا، أَنْ تُتْرَكَ فِي أُمَّةِ الْجَمَادَاتِ. وَلَكِنْ مَقَامُ النَّبَاتِ أَعْلَى وَأَمْتُهُ أَفْضَلُ، فَجَعَلْتِكِ مَتَغَذِّيًا نَامِيًا وَلَمْ يَجْعَلْكِ جَمَادًا؛ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ لَا يُوْدَى شُكْرُهَا وَلَا يَقْدَرُ قَدْرُهَا. فَاجْتَهِدِ عَافَاكَ اللَّهُ جَهْدَكَ فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَلَى قَدَرِ مَعْرِفَتِكَ وَتَدْقِيقِكَ. فَإِنَّ الْعَوَامَ مَا تُسْأَلُ عَنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَتُسْأَلُ نَحْنُ عَنْهَا، فَسْأَلْنَا أَشَدَّ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَمَلُنَا أَتَمًّا.

وَلَا تَكُنْ يَا وَلِيِّي كَقَوْمِ رَأَيْتَهُمْ، فَأَبْنَتْ لَهُمْ مَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ لِيَجْتَهِدُوا، وَأَمَرْتَهُمْ بِمَا أَمَرْتُكَ وَأَمَرْتُ نَفْسِي بِهِ فَأَبَوْا قَبُولَ ذَلِكَ. وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ خُذْلَانَهُ: إِنْ الْعَبْدَ لَا يَفِي أَبَدًا بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ أَنْ يَسْتَغْرِقَهَا؟ فَالْتَعَنِي لَا فَائِدَةَ مِنْهُ! فَقُلْتُ: صَدَقْتُمْ فِي أَنْ أَحَدًا لَا يَفِي بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ مِنْهُ عَلَى النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ. وَلَنَا فِي هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ ذِرَاعٌ أَطْوَلُ مِنْ ذِرَاعِكُمْ وَأَزِيدُ، مِمَّا لَا تَعْرِفُونَهُ، وَلَوْ عَرَفْتُمُوهُ لَمَّا عَبَدْتُمْ اللَّهَ أَبَدًا مِمَّا تَرَوْنَهُ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَأَنْتُمْ قَاصِرُونَ. وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَبْذُلَ الطَّاقَةَ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَرْضَاتِهِ عَلَى الْإِسْتِيفَاءِ، فَإِذَا

لم يبق له اتساع حينئذ يقول أنه لا يفي وأن ذلك عقد في القلب والجوارح تتصرف بالأعمال.

فإياك والبطالة، فقد تقدمك النبيون والمرسلون والملا الأعلى من الملائكة والعارفون وصالحو المؤمنين بالاجتهاد والكد، مع صحة التوحيد والمعرفة والقصد. وما قال بقولك هذا إلا الإباحية والمنحلة عقائدهم، الذين قالوا بإسقاط الأعمال. نسأل الله لنا ولكم وللمسلمين العصمة في الحال والمآل.

ثم زادك الله نعمة على هذه النعمة بأن نقلك من أمة النبات والشجر إلى أمة الحيوان، فجعلك حساسا. فوجب عليك من الشكر والعبادة ما وجب على الجماد والنبات والحيوان، فإنك قد جمعت حقائقهم وزدت على كل واحد منهم. فينبغي لك أن تعمل على كشف عبادة العالم سفله وعلوه وما هم فيه، فتأخذ نفسك بعبادة كل طائفة منهم؛ فإنك مشارك لهم في حقيقتهم. ولهذا أنت الأم الجامعة لحقائقهم.

ثم إنه ما منها من أمة، من الجماد والنبات والحيوان وغير ذلك، إلا ولهم عبادتان: عبادة تعم الأمة كلها وعبادة تخص آحاد الأمة، كما قال تعالى ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ فهذه عبادة الأشخاص على الانفراد. وأنا لا أطلبك بعبادة الأشخاص وإنما أطلبك بالعبادة التي يشترك فيها جنس تلك الأمة. وإنما يتوجه عليك عبادة أشخاصها إذا أوقفك الحق مع واحد منها؛ فحينئذ.

وفي جملة أشياخنا الذين انتفعنا بهم في طريق الآخرة في هذه الأمم: ميزاب، رأيته بمدينة فاس في حائط يتزل منه ماء السطح، مثل ميزاب الكعبة، فوقفت على عبادته وأجهدت نفسي عسى أجري معه في ذلك. ومنهم ظلي الممتد من شخصي، أخذت منه عبادتين قد أخذ نفسه بهما. وأشباه ذلك.

وأما الحيوانات، فلنا منهم شيوخ. ومن جملة شيوخنا الذين اعتمدت عليهم: الفرس، فإن عبادته عجيبة، والبازي والهرة والكلب والفهد والنحلة، وغير ذلك. فما قدرت قط أن أتصف بعبادتهم على حد ما هم عليه فيها، وغاييتي أن أقدر على ذلك

في وقت دون وقت. وهم في كل لحظة، مع اعتقادهم بسيادتي عليهم، يوبخوني ويعاتبوني. ولقد ألقى منهم شدة لما يرونه من نقص حالي في عبادتهم، وربما يغتاظ بعضهم عليّ حتى تحجبه غيرته في دين الله من أجل تقصيري فيهم بإذائتي، ويغيب عن سيادتي عليه لمعصيتي وسوء معاملتي مع الله، فتزول طاعتي من عليهم. وأعذرهم في ذلك وأسلم لهم في إخلاصهم، فإن أبا بكر الصديق قد قال لما ولي الخلافة "أطيعوني ما أطيع الله ورسوله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم" وقال الحق!

فينبغي لك يا وليي إذا آذاك حيوان من الحيوانات، من كلب أو دابة أو حنش أو عقرب، أو غير ذلك من الأمة الحيوانية، أو آذاك عودُ شجرة أو ورقة من الأمة النباتية، أو آذاك حجرٌ بأن تعثر فيه أو يسقط عليك من حائط أو يرميه صبي أو أحد إلى شيء، فترك الحجر المشي لما رُمي له وينصرف إليك؛ فلا تغضب، وأنصف وارجع مع نفسك إلى حالك، وأقم عليها ميزان العدل فيما كلفها الله من مراقبته والحضور معه. فلا بد ضرورة أن تجد قصورا أو تفريطا فيك في العبادة التي توجهت عليك مما تُعبد به ذلك الذي آذاك من حيوان أو نبات أو حجر. فاستغفر الله وتب إليه وأخلص، واعزم على أن لا تعود؛ فإنه يذهب عنك ذلك الألم من حينه، فإن تقويت خاطبك ذلك الذي آذاك. فتسمى كرامة، وليست الكرامة على الحقيقة إلا تنبّهك لهذا وتوبتك وهروبك إلى موطن الموافقة.

فلا يغرتك يا وليي قول الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فإنه لم يقل "فعلت ذلك لتسعدكم" ولا أيضا "لنشقيكم" فبقيت على قدم الحذر والغرور واقفا؛ فتحفظ، فإنها آية فتنة يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء. قال كليم الله موسى عليه السلام ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾؛ فلا تغرتك رفعتك على جميع الموجودات، من جهة الحقائق التي أنشئت عليها علوا وسفلا، فإنها ليست برفعة إلهية. وإنما هي رفعة تعطيلها الحقائق، لا تعصم من نار ولا تدخل نعيما، ولا يدخل بها أهل الجنة في جنتهم ولا أهل النار في نارهم.

فلا فائدة فيها ولا سلطان لها على السعادة، وبها زلت أقدام أكثر أهل هذه الطريقة، وهي التي أخرجتهم عن الشريعة.

وإنما يغتر الإنسان بالرفعة الإلهية الاختصاصية الصفائية الزائدة على الإنسانية، وهي قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾. على ذلك عَوَّلْ أئمتنا وساداتنا من المعصومين من الأنبياء والمحفوظين من الأولياء، وما ثم من يقتدى بهم إلا هؤلاء. قال الله تعالى ﴿فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ وقال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ فهذه نعمة يجب عليك نظر قوي فيها.

ثم زادك الله تبارك وتعالى نعمة أخرى إلى هذه النعم، فجعلك ناطقا؛ فضلك بها على الحيوان الحساس خاصة. فزدت معرفة بما لا يعرفه الحيوان، فتزداد عبادة واجتهادا على حسب الطور الذي انتقلت إليه. وهنا عليك نعمتان كبيرتان: النعمة الواحدة بأن أعطاك بطقك حقيقة الملك، وهو الاشتراك في العقل الإلهي؛ فوجب عليك ما وجب على الملك من جهة روحك. وقد سمعت بعبادة الملائكة التي أخبرنا الله تعالى بها على مراتبهم، وقد دخلت أنت بعقلك معهم، فتوجه عليك في روحك العقلي وسرك اللطيف الملكي ما توجه على الملك؛ فأنت مُطالب بالحضور الدائم. وشاركت النازلين عنك من عالم الأجسام، حمادهم ونباتهم وحيوانهم، في حقائقهم التي لم يشاركهم فيها الملك؛ فتوجهت عليك، كما ذكرناه، عبادتهم.

فكل عبد لله مطلوب في العبادة بما تقتضيه حقيقته: فالملك مطلوب في عبادته بحقيقته، ما عليه مزيد. والحساس مطلوب في عبادته بثلاث حقائق؛ بحقيقة انفصاله عن النبات والجماد، وبحقيقتي اشتراكه مع عالم النبات والجماد. وعالم النبات مطلوب في عبادته بحقيقتين؛ حقيقته التي انفصل بها عن الجماد وحقيقة اشتراكه مع عالم الجماد. وعالم الجماد مطلوب في عبادته بحقيقة واحدة، فإنه لا شيء أنزل منه. والملك مطلوب بحقيقة واحدة أيضا في عبادته، لأنه لا شيء أرفع منه. ولهذا أبدا يقابل العلو السفل والأول الآخر والشيء نقيضه، أبدا.

وأنت يا وليي، الذي هو الإنسان، مطلوب في عبادتك بخمس حقائق: حقيقة الملك، فإنها فيك، وحقيقة الحسّاس وحقيقة النبات وحقيقة الجماد، وحقيقة الجمعية لهذه. فإذا وفيت بشكر هذه الحقائق وتأيّدت بها، وعبدت الله على مقدار ما أعطاك من التمكين والكشف في معرفتها، إن كنت مُريدا صادقاً، بعد هذا تنتقل إلى أوّل قَدَم في ظاهر الشريعة.

ولا تقل أنك أرفع من الجماد ولا أشرف من الملك ولا أخط منه، فإنك في طور آخر مفرد يخلصك. وذلك أن الله قد وهبك سرّ الجمعية العامة الكبريائية، وهو الذي حجبك عن عبوديتك وبه ترأّست، حتى قيل في الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾؛ فإنهم ما ترأسوا قط لعدم سرّ الجمعية العامة الكبريائية في حقائقهم، فكانوا عبيداً. وكذلك من نزل عنهم من طبقات العوالم، إلا أنت. فإن سرّ الجمعية الكبريائية مبثوث فيك، وبهذا صحّ لك مقام الخلافة على العوالم، وبه طلبت التقدّم والرياسة واحتجبت عن الله تعالى، وهو قوله صلى الله عليه وسلم «وأعوذ بك منك». فإن سرّ الجمعية العامة الكبريائية هو الذي حجبك عن الله تعالى، ولو أبقاك، كما أبقى العالم، مُعرّئ عنه؛ لكنك عبدًا. فنبّه نفسك.

ولما علم سبحانه أن سرّ الألوهية في الإنسان داءٌ عُضال كثر الأدوية فيه، فما زال يُنبهك في كتابه العزيز على أدويتك لهذا الداء لتستعملها فتبرأ منه، فقال تعالى ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا؟!﴾ فهذه حقيقتك الملكية، وفي هذه الآية لم تزل الملائكة. وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾؛ فالضعف الأول، بحكم التحقيق لا بحكم التفسير، خلقه إياك على فطرة العالم كلّ، والقوة نفخة سرّ الجمعية العامة الكبريائية فيك بعد تسويتك، والضعف الثاني والشيبة هو ما حصل لك من شرب دواء المعرفة الذي أعطاك فاستعملته؛ وبهذا تقع الفائدة.

فلستَ من نَمَطِ العَالَمِ في شيءٍ، ولا تَتَمَيَّزُ معهم أَلْبَتَّةً، فإنَّكَ انفصلتَ عنهم بسرِّ الألوهية. فإن استعملته ولم تشرب من هذه الأدوية شيئاً خرجت مع فرعون والنمرود. وكل مَنْ ادَّعى الربوبية على قدره، من كلمة فرعون إلى قول الإنسان "لولا ما قلتُ له لاتفق كذا"، "لولا أنا لهلك العيال"، وهي أدنى المراتب في الألوهية، حتى الشيخُ في هذه الطريقة يقول "لولا همِّي في فلان أصبحته إياها؛ وإلا فقد كان هلك!" وهذه كلها علل وأمراض من داء سرِّ الألوهية.

وكل واحد من هذه الأصناف مُعاقب على قدره إما بالعقوبة الكبرى وإما بنقص الحظ، فلا بد من العقوبة؛ ولهذا يعلو البقاء عندنا على الفناء. وهذه حقيقة لم يشعر بها من تقدّم من أصحابنا، فاعرفها يا وليي.

فإذا لم يتميَّز الإنسان مع العالم لسرِّ الجمعية الكبريائية فلا يقال: من أشرف؛ الملك أو الإنسان؟ فصار الإنسان يزاحم الألوهية لوقوفه على الأسماء كلّها من جهة سرِّ الجمع العامِّ الكبريائي المبثوث فيه وخلافته. فعظم حجابُه وسجد له العالم أجمع من أجل ذلك السر.

فالقوي منا المتمكن هو الذي يخرق حجاب سرِّ الجمعية العامة الكبريائية بينه وبين ربه، حتى يشاهد ألوهية ربه دون ألوهيته فيتعبده، فيعرف عبوديته. فحينئذ يكون أقوى العالم وأشدّه، لرفعه ذلك الحجاب الأقوى، فتكون منزلته أعلى لأن قوته أعظم. وهناك يتميَّز ويتجارى مع العالم في الرفعة والانحطاط، وهناك رأيت مبلغ العالمين العارفين.

وأما المدرك الذي أومأنا إليه، فبعيد أن تسمعه في غير هذه الرسالة على درج هذا التحقيق، لكن تجده مبدداً في أشياء كثيرة يؤمأ إليه ولا يوضّح مثل هذا الإيضاح. وكما توجه عليك بمشاركتك أطوار العالم أن تقوم بالجامع الكبريائي معهم في عباداتهم، كذلك توجه عليك بالسرِّ الجامع الكبريائي المبثوث فيك أن تُجرّبه على ما أجراه الله تعالى من نفسه في خلقه، فهو اللطيف بعباده؛ فكن كذلك. وهو الرحيم

الغفور؛ فكن كذلك. وبهذا وصف نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. فسِرُّ الألوهية أثمر لك هذا بعد خرقه، وأما قبل أن تخرقه فإنه أثمر لك ما أثمر للجبارين المتكبرين، قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ فمن أجل سر الألوهية ختم عليه بالشقاء.

فتحقّق هذا الفصل وتحفّظ منه، واعلم أن التوبة والتوكّل وما أشبه ذلك قد اختصّ الله بها هذا العبد الإنساني. فإن الملك طاعة بلا معصية والشیطان معصية بلا طاعة؛ فكلاهما قد فقد حلاوة التوبة ومقامها وسرّها ومعرفتها وشوقها ومحبتها. فإن الملك لا يعصي فيتوبُ فينالها، والشیطان لا يجنح إلى الطاعة ولا يحدث بها نفسه فيتوبُ من مخالفته فينالها. وقد اختصّ بها هذا العبد المجتبي، ولهذا كانت من كمال آدم عليه السلام حتى عمّ جميع المقامات فقال ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

كذلك التطهير الذي اقترنت به محبة الله تعالى. فإن الملك مُطَهَّرٌ لا مُتَطَهِّرٌ، والشیطان دَنَسٌ لا يَتَطَهَّرُ. وعلّق الله محبة اختصاصه بالمُتَطَهِّرِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فنالها الإنسان. فما لنا يا وليّ نغفل عن شكر هذه النعم ونحن منها في مزيد؟! فهذه النعم كلّها هي التي تُعطيها حقيقة الإنسان بما خلق عليه، سواء كان سعيداً أو شقيّاً.

ثم تنتقل إلى نعم الاختصاص بالسُعداء التي تُميزك عن الأشقياء من جنسك. فأولّها أن جعلك مَوْحِداً ولم يجعلك مُشركاً، لا لِيَدَّ تَقَدَّمت لك عليه، ولكنه أيّدك وقوّاك حتى خرقت حجاب الجمع العامّ الكبريائي الذي استودعه فيك منه. فنفدت من ورائه إلى عبوديتك، فعاينت ألوهية الحق المقدّسة الجلال؛ فوحّدته ولم تشرك. وهؤلاء هم أهل 'لا إله إلا الله' المقطوع لهم بسعادتهم، المنبّه عليهم في كتابه العزيز ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. وهنا يُحور عظام هلك فيها عالمٌ كثير من أهل

طريقتنا، لعدم التحقق ولوقوفهم مع سرّ الجمعية العامة الكبريائية الذي فيهم؛ فحجبتهم الرئاسة عن استيفاء الخدمة.

فهذا اختصاص، إذ قد قسم جنسك إلى موحد وإلى مشرك، وجعلك من حزب الموحدين. وهذا فيه تفصيل كثير نخاف من طول العجالة في إيراده، فتركناه. وهذا هو أوّل قدم في الشريعة، فإن الشارع أوّل ما أتى به 'لا إله إلا الله' فلم يُجبه إليها إلا من خرق سرّ حجاب الجمعية العامة الكبريائية منهم. وهذا يقع الاشتراك وتباين مراتب أهل 'لا إله إلا الله' على حسب رفع حجابهم: فمنهم من يقولها ابتداءً معه من غير نظر، وهو الإمام. ومنهم من يقول معه ذلك بعد رؤية برهان، فهذا جاهل بنفسه؛ فإن 'لا إله إلا الله' من مدركات العقل بالنور الإلهي. فتوقّفه دليل على التقليد وفقد ذلك النور. ولكن سعد بإجابته، ولو ببرهان، قال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ فاعبُد الله يا وليي واجهد على شكر نعمة التوحيد الأولى في الشرع لأهل التقليد.

ثم زادك إلى هذه النعمة نعمة أخرى، وهي إيمانك بالرسول. ولم يجعلك موحدًا له مُكذِّبًا برسوله، كما فعل بغيرك من أبناء جنسك حيث كفر برسوله؛ مثل فرعون وآله بموسى، والنمرود وآله بإبراهيم، وأبي جهل وأصحابه بمحمد، عليهم الصلاة والسلام. وعذاب كل فرعون على مقدار نعيم نبيه الذي كفر به، وسُفله على قدر علوّ نبيه. وكذلك العارفون الصالحون مع المنكرين عليهم من الفقهاء علماء الرسوم؛ ينقص من حظّ نعيمهم في الدار الآخرة على قدر مرتبة العارف الذي أنكروا عليه، وعليهم نقص نعيم أتباعهم في ذلك المقلّدين لهم. فينقص للفقهاء صاحب علم الرسم، إذا أنكر على الولي العارف - ما لا يبلغه علمه من نعيمه في الجنان إذا سعد - على قدر مرتبة ذلك الولي في المعرفة بالله، وقدر السر الذي أنكره عليه، وعلى قدر من اتّبعه في إنكاره من المقلّدين.

ومن هذا كان يفزع شيخنا أبو عمران موسى بن عمران الميرثلي، وكان من أهل علم الرسوم وعلم هذه الطريقة، وهو الذي ذكرناه في جملة أشيائنا من أهل الطريقة في هذه الرسالة، نحنا منحى المحاسبي. دخل عليه أبو القاسم بن عفير خطيب إشبيلية فتكلم معه فيما يأتي به أهل هذه الطريقة من المعارف التي تقصّر أفهام علماء الرسوم عنها، لأنها علوم نبوية. وهذه العلوم الخبرية لا يقوم دليل العقل عليها، فلم يبق إلا مجرد الإيمان بها لأنها علوم إخبار تحمل الصدق والكذب، ولذلك إذا أتى بها الرسول تلقاها الفقهاء بالقبول. فلو أحالها العقل لرُدّت أبدا في كل حال، وما يشعر الفقهاء بهذا القدر. فقال أبو القاسم ابن عفير الفقيه لشيخنا "أما أنا فأنكرها!" فقال له الشيخ أبو عمران "أما أنا فأؤمن بها كلها! وإياك يا أبا القاسم أن يجمع الله علينا فيها حرمانين: لا نراها من أنفسنا ولا نصدّق بها من غيرنا؛ فيكون العامي أحسن حالا منا في ذلك عند الله!" فتنبّه الفقيه أبو القاسم الخطيب وقال "تبّهتني، رضي الله عنك!" ولم أحضر هذا المجلس ولكنه أخبرني به أبو القاسم الفقيه المذكور المنكر، ومن ذلك الوقت صار يُحبّني وينظرني بعين التعظيم. فقد حبانا الله يا وليي بالإيمان بالنبى حين خذَلْ غيرنا؛ فتفرّض علينا شكرُ الله وعملٌ زائد بمزيد هذه النعمة.

ثم نعمة أخرى: لَمَّا جعلك مؤمنا بنبي، جعلك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعلك من أمة غيره من الأنبياء. وهنا نعم: منها أن ألحق هذه الأمة بدرجة الأنبياء باتباعهم محمدا عليه السلام، وعيسى عليه السلام من جملة أمة محمد وهو رسول الله وروحه وكلمته، وقد دخل في عدادنا وهذا مقام. والنعمة الأخرى أن جعلك شهيدا على سائر الأمم؛ وهي مرتبة النبوة، فإنهم الشهداء على أممهم. قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ فالأنبياء شهداء على أممهم، وقيل فينا ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فقد شُورِكنا معهم في هذا؛ فهذه مواطن نُحشَر فيها غدا مع النبيين. وقال الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فوصفنا

بالعدالة ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. وإن شئتَ جعلته من الشيء بين الشيعين: بين شهادتك على الناس وشهادة رسولك عليك، وأنت بينهما: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

ونعمة أخرى لم يعطها أحدٌ قبلك من الأمم؛ فإنك مؤمن بنبيك، آخر الأنبياء، وبمن تقدم إلى آدم. وغير ذلك من النعم التي يتضمنها هذا المقام، ولكل نعمة شكر يخصها وعمل يطابقها. فلنجهد في تحصيله أو تحصيل ما أمكن منه.

ثم بعد هذا أن قسم أمة نبيه بين مُبتدع ومحفوظ، فحفظك من البدعة وميزك في ديوان السنة؛ فهذا اختصاص. ثم أهل السنة قسمهم قسمين: عالم وجاهل، فجعلك عالماً بما تعبدك به من شريعته ولم يجعلك جاهلاً بذلك؛ فهذه نعمة يجب أيضاً شكرها. ثم جعل العالمين على قسمين: طائع وعاصٍ، فجعلك من الطائعين ولم يجعلك من العصاة؛ فهذه نعمة عظيمة. والطاعة على مقاماتها، أن عصمتك بالشيء من نقيضه وذكره يطول. ثم جعل الطائعين على قسمين: عارف وعابد، فجعلك من العارفين العابدين؛ فهذه نعمة يجب الشكر عليها. ثم قسم العارفين قسمين: وارث وغير وارث، وجعلك من الوارثين، والوارثون على حسب مراتبهم؛ فقد غمرت النعم ولم يتسع الليل والنهار لأداء شكر واجبات هذه النعم، وإنه إن اشتغلنا بواحدة منها فغابتنا أن نقطع ضيائنا وظلامنا ببعض ذرة من واحدة منها.

فعلى هذا يجب علينا الذي يُمكننا أن نفعله: أن لا يرانا الله وقتاً واحداً بطالين، ولا متصرفين في مباح إلا حاضرين بقلوبنا على الدوام، مكفوفين الجوارح عن التصرف المحذور علينا، مطلقين الألسنة بالذكر أو بإظهار العلم والشكر عليه والاعتراف بالتقصير دائماً، وتوبيخ النفوس الذي أراده الحق منا لتعديلها وتركيتها فـ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ بالأعمال الصالحة ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ مثلي فأدخلها في الصالحين وليست منهم.

فهذه يا أخي نصيحتي لي ولك، لَمَّا رأيتُك مثلي وأحببتُك في الله تعالى
وأعجبني إنصافُك وتعشَّقت مُعاشرتُك. ووَدِدْتُ اليومَ أن أكونَ معك حيثَ كنتَ
تنصِّحُني وأنصحك وتوبِّخني وأوبِّخُك، ونكونَ رفيقَيْن في الله تعالى مُحِبَّين فيه حتى
نموتَ؛ فما أحبَّني فيك وأشدَّ شَفَقَتي عليك، رضي الله عنك!

انتهى الجزء الرابع

ولقد تَمَنَّيتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ كَمَا حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ يَحْيَى بْنُ أَبِي الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسَنَدِهِ مِنْ خَبَرِ بِلَالِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ: أَخَوَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَرَجَا يَتَعَبَّدَانِ فَلَمَّا أَرَادَ الطَّرِيقُ يَفْرُقُ بَيْنَهُمَا قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ "خُذْ أَنْتَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ وَآخُذْ أَنَا فِي هَذَا الطَّرِيقِ، فَإِذَا كَانَ رَأْسُ السَّنَةِ فَهَذَا الْمَوْعِدُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ" فَخَرَجَا يَتَعَبَّدَانِ. فَلَمَّا كَانَ فِي رَأْسِ السَّنَةِ اجْتَمَعَا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ "أَيُّ ذَنْبٍ فِيمَا عَمِلْتَ أَعْظَمُ؟" قَالَ "بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا بِسُبُلَةٍ فَأَحْذَتْهَا فَأَلْقَيْتُهَا فِي إِحْدَى الْأَرْضَيْنِ، أَرْضٍ عَنْ يَمِينِي وَأَرْضٍ عَنْ شِمَالِي، وَلَا أَدْرِي: هِيَ لِلْأَرْضِ الَّتِي أَلْقَيْتُهَا فِيهَا أَمْ لِلْأُخْرَى! ثُمَّ قَالَ الْمَسْئُولُ لِلسَّائِلِ "أَيُّ ذَنْبٍ عَمِلْتَ أَعْظَمُ؟" قَالَ "لَا أَعْلَمُ، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَمِيلُ مَرَّةً عَلَى هَذِهِ الرَّجُلِ وَمَرَّةً عَلَى هَذِهِ الرَّجُلِ، فَلَا أَدْرِي أَكُنْتُ أَعْدِلُ بَيْنَهُمَا أَمْ لَا!" فَسَمِعَهُمَا أَبُوهُمَا مِنْ دَاخِلِ الدَّارِ فَقَالَ "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَا صَادِقَيْنِ فَأَمْنْتُهُمَا!" فَخَرَجَ فَإِذَا بِهِمَا قَدْ مَاتَا.

فَهَكَذَا يَا وَلِيِّيْ كَيْفَ يَكُونُ اجْتِمَاعُ أَهْلِ اللَّهِ وَمُخَاطَبَتُهُمْ: عَلَى ذِكْرِ الْمَعَائِبِ وَالْإِنْصَافِ، لَا عَلَى وَجْهِ الْمَدْحَةِ وَالِاتِّصَافِ! هَلْ يُذَكَّرُ فِي السَّجْنِ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِهِ؟! إِذَا تَرَحَّلْتَ وَنَزَلْتَ فِي مُسْتَقَرِّ الرَّحْمَةِ وَجَنِّتَ ثَمَرَ عَمَلِكَ، هُنَالِكَ تَذَكَّرُ مَا يَلِيقُ بِمَوْطِنِ الْحُسْنَى مِنْ مَحَاسِنِكَ. وَأَمَّا هُنَا فَلَا؛ فَإِنَّهَا دَارُ الْبَلَاءِ وَالْإِفْتِرَاقِ وَالْاجْتِرَاحِ، وَالْإِنْسَانُ فِيهَا، مِنْ نَبِيٍّ وَغَيْرِ نَبِيٍّ، مَسْجُونٌ عَلَى دَمِهِ؛ لَا يُخْرَجُ مِنْهَا إِلَّا بِالْقَتْلِ! وَلَوْلَا التَّطْوِيلُ لَتَكَلَّمْنَا عَلَى مَرَاتِبِ السَّجْنِ وَالْمَسْجُونِينَ. بِنِهَا تَعْطِيهِ الْحَقَائِقُ الثَّابِتَةُ وَالْعَادِيَّةُ، وَيَكْفِي هَذَا الْقَدْرُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ.

وَيَعْلَمُ اللَّهُ لَوْلَا وَدَّيْ فَيْكَ وَحُرْمَتُكَ الَّتِي لَكَ فِي نَفْسِي مَا خَاطَبْتُكَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ وَلَا ذَكَرْتُ اسْمَكَ وَلَتَرَكْتُكَ مُهْمَلًا فِي جَمَلَةِ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى! لَكِنَّ اللَّهَ قَدْ

عرّف بيني وبينك روحاً وجِسماً، ومعنى ورسمًا، فلم يتمكن أن أحاطبك إلا بما يقتضيه الوُدّ الصريحُ والدين الخالص الصحيح. وأما فضلك وتقدّمك في طريقك عندي فمشهور ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾!

وقلّ اليومَ من يصحبك الله، فأكثر الصُحبة معلولة في زمانك من أجل هذه الأعراض واستحكام سلطان الأغراض، وعبدُ الله اليوم قليل. ولنا في معنى هذا أبيات وهي هذه:

ووجودنا مثلَ الرداء المُعلم	أنظر إلى هذا الوجود المحكم
من مفصح طلق اللسان وأعجم	وانظر إلى خلفائه في ملكهم
إلا ويمزجه بحب الدرهم	ما منهم أحد يُحبّ إلّهُ
عبد الجنان وذا عُبيد جهنّم	فيقال هذا عبدُ معرفة وذا
سكّرى به من غير جنس توهُم	إلا القليل من القليل فإنهم
أحدٌ سواه لا عبّيد المُنعم	فهم عبّيد الله لا يدري بهم

إلى آخر القصيدة.

فأجهد نفسك يا وليي في أن تتحلّى بحلية قوم بكى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليهم، ولا يؤثّر فيك كلام المغرورين من الفقهاء علماء السوء، الذين لبسوا رقاق الثياب وتناولوا لذيذ المطاعم. فإذا قلتَ لهم في ذلك تلوا عليك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟﴾! فقد أخبر النبي عليه السلام أنهم سيقولون هذا إذا قلتَ لهم في ذلك، على ما كتب به إلينا شيخنا أبو محمد بن محمد بن سعد الله بن محمد البجلي البغدادي الحنفي رضي الله عنه من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فقال «يا أسامة عليك بطريق الجنة وإياك أن تُختلجَ دونها» فقال "يا رسولَ الله، وما أسرعَ ما يُقطع به ذلك الطريق؟" فقال «الظُّمأُ في المَواجِرِ وحَبَسَ النفسَ عن لذة

الدنيا! يا أسامة عليك عند ذلك بالصوم؛ فإنه يقرب إلى الله عز وجل. إنه ليس من شيء أحب إلى الله من ريح فم الصائم، ترك الطعام والشراب لله عز وجل؛ فإن استطعت أن يأتيتك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمان فافعل، فإنك تدرك بذلك شرف المنزل في الآخرة وتحل مع النبيين، تفرح بقدم روحك عليهم ويصلي عليك الجبار! وإياك يا أسامة وكل كبد جائعة تُخاصمك إلى الله يوم القيامة، وإياك يا أسامة ودعاء عباد قد أذابوا اللحوم وحرّقوا الجلود بالرياح والسمايم، وأظمؤوا الأكباد حتى غشيت أبصارهم، فإن الله إذا نظر إليهم سر بهم وباهى بهم الملائكة؛ بهم تُصرف الزلازل والفتن!» ثم بكى النبي صلى الله عليه وسلم حتى اشتدّ نحيبه، وهاب الناس أن يكلموه، حتى ظنوا أن أمرا قد حدث بهم من السماء.

ثم سكت فقال «ويح هذه الأمة؛ ما يلقي منهم من أطاع ربّه فيهم! كيف يقتلونه ويكذبونه من أجل أنه أطاع الله؟! فقال عمر بن الخطاب "يا رسول الله، والناس يومئذ على الإسلام؟" قال «نعم» قال "فقيم إذن يقتلون من أطاع الله وقد أمرهم بطاعته؟" فقال «يا عمر ترك الناس الطريق وركبوا الدواب وليسوا لئن الثياب وخدمتهم أبناء فارس؛ يتزين الرجل منهم تزين المرأة لزوجها وتبرج النساء! زيهم زي الملوك الجبابرة ودينهم دين كسرى وهرمز! يسمنون، باهوا بالجشاء واللباس؛ فإذا تكلم أولياء الله، عليهم العباء مَحْنِيّة أصلاّبهم قد ذبحوا أنفسهم من العطش، فإذا تكلم منهم متكلم كذب وقيل له "أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة؛ تحرم زينة الله والطيبات من الرزق؟!" يتأولون كتاب الله على غير دين؛ استذلّوا أولياء الله عز وجل.

اعلم يا أسامة أن أقرب الناس من الله يوم القيامة لمن طال حزنه وعطشه وجوعه في الدنيا: الأخفياء الأبرار الذين إذا شهدوا لم يُقربوا وإذا غابوا لم يفتقدوا؛ تعرفهم بقاع الأرض، يُعرفون في أهل السماء ويخفون على أهل الأرض وتحف بهم الملائكة. ينعم الناس بالدنيا وينعمون هم بالجوع والعطش، ليس الناس لئن الثياب

ولبسوا هم خَشَنَ الثياب، افترش الناس الفرش وافترشوا هم الجباه والرُكَب، ضحك الناس وبكوا. يا أسامة لا يجمع الله عليهم الشَّدَّة في الدنيا والآخرة؛ لهم الجنة. فيا ليتني قد رأيتهم! يا أسامة لهم البُشرى في الآخرة، ويا ليتني قد رأيتهم، الأرض بهم رَحبة والجَبَّار عنهم راض؛ ضيع الناس فعلَ النبيين وأخلاقهم وحفظوا هم! الراغبُ مَنْ رغب إلى الله في مثل رغبتهم والخاسر من خالفهم. تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخَط الله على كل بلدة ليس فيها مثلهم.

يا أسامة وإذا رأيتهم في قرية فاعلم أنهم أمانٌ لتلك القرية؛ لا يعذب الله قوما هم فيهم، اتَّخَذَهم لنفسك عسى أن تنجوَ بهم، وإياك أن تدَّع ما هم عليه فتزلَّ قدمك فتَهوي في النار. حرِّموا حلالَ ما أحلَّ الله لهم، طلبوا الفضل في الآخرة، تركوا الطعام والشراب عن قُدرة، لم يتكأبوا على الدنيا انكِباب الكلاب على الجيف. شغل الناس بالدنيا وشغَلوا هم أنفسهم بطاعة الله؛ لبسوا الخلق وأكلوا الفلق، تراهم شعثا غُبرا، يظنُّ الناس أن بهم داءٌ وما ذاك بهم. ويظنُّ الناس أنهم قد حولطوا وما حولطوا، ولكن خالط القومَ حزنٌ فظنَّ الناس أنهم قد ذهبت عقولهم. وما ذهبت ولكن نظروا بقلوبهم إلى أمرٍ ذهب بعقولهم عن الدنيا؛ فهم في الدنيا عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول. يا أسامة عقلوا حين ذهبت عقول الناس؛ لهم البُشرى في الآخرة». حدثنا بهذا الحديث بطوله المَهْدُب أبو محمد عبد الكريم بن يوسف بن الحسين الموصلي من لفظه وأنا أسمع، قال: حدثنا أبو منصور مسلم... الخ السند عن سعيد بن زيد بن نفيل وذكر بمثل حديث البجلي الحنفي.

فانظر يا وليي وصفَ حبيب الله ورسوله لأولياء الله وكيف نعتهم. فعلى هذا الوصف ينبغي أن نعكِف وبه نتَّصف عسى ننقلب إلى الله ونحن بهذا النعت منعتون وبهذه الحلية مُتَحَلَّون. فاجتهد يا أخي في ذلك ولا تتأخَّر عنهم، ومُدِّني بالدعاء والهِمَّة، فإن الصاحب المطلوب اليوم معدومٌ جدا.

ولما رأيت القرين الصالح معدوما والطبيب المشفق الناصح غير موجود، تأسفت لذلك، ولحظت كل إنسان مسرورا بما هو فيه لا يتنبه لعيب أخيه فيتنبه ذلك لعيبه، فيتصاحبان بالنصيحة وتحصل لهما المرتبة الصحيحة؛ فعملنا في عدم القرين الناصح وفتنة الإنسان بحاله أبياتا وهي:

ذكرت ذنبي فأبكاني وحيّرني	لما غدا من جوار الله يطردني
كيف الخلاص وما ضيّعت من عمري	به المهيمن يوم الحشر يطلبني
يا ليت أذني لم تسمع حديث هوى	يا ليت عيني لم تنظر إلى حسن
يا ليت كفّي لم تُخلق ولا قدمي	ولا لساني وليت القلب لم يكن
أو ليت إذ كان خلقي كان يسعدني	توفيق ربي في سرّ وفي علن
ولا أهيم بشخص ليس ينفعني	يوم النشور إذا الرحمن يسألني
ولا ندبت ديارا كنت ألفها	ولا حننت إلى رنع ولا سكن
ولا تغزلت في ورفاء صادحة	على الأراك تُعني وهي تندبني
ولا شربت حميا ضنّ حابسها	بها على الشرب من عهد ابن ذي يز
ولا تمّنت شيئا لست مُدركه	ولا قطعت بأسباب الردى زمني
ولا تكلمت في علم ومعرفة	حتى دُعيت له بالعالم الفطن
وظلّ إبليس الملعون يلعب بي	وخرقة الذنب في الأحشاء تُحرقني
كم ذا أقيم على العصيان مُكتمّا	وأنت سُبحانك اللهم تحفظني؟!
أمسي وأصبح في شيء يقربني	إلى الشقاء ومن سَعدني
كم ذا أبارزه بالذنب مُستترا	عن العباد وعينُ الله تنظرني؟!
ولا حياء من الرحمن يقبضني	عن المعاصي الذي لو شاء أهلكني
ولا خليل من الإخوان يوقظني	من نومة لعذاب الله تحملي
سوى خليل رأي في تغرّبه	فحلّ مني محلّ الروح من بدني
فلا أزال إذا يلهو أبصره	ولا يزال إذا أسهو يُذكرني

فليس خلِّي إلا مَنْ يرى زَلَلِي
فالصاحب الحقُّ كالصابون يُذهب ما
لما سمعت رقيبِي وهو يَطعنُنِي
يا سيدي، ورعاك الله، تسمعنِي
وليس شخصا فتؤذيه وتضربه
فانظرُ إليه وحسنْ خلق صورته
وهو الذي يدفع الخصمَيْن عنك إذا
فعندما سمعتُ نفسي مواعظه
فقلت: يا نفس مهما كنتِ ساعيةً
فيا وليي أبقاك الله

لقد كنتُ أخشى أن نقول بحُرقةٍ
أنوح على نفسي وأبكي لعفلي
إذا كان قُربي من إلهي مُقارنا
فإن هو جازاني على فعلتي فما
ولكنني أرجوه سرًّا وجهرة
مقالةً عبد خالف الحقَّ في القصدِ
وأندب قلبًا حادَّ عن سنن الرُّشدِ
لُقرب فؤادي من إلهي فيا بُعدي!
جزائي سوى الإقصاء بالعنف والطرد
فإن كان هذا الوجد يُجدي فيا
جَدِّي!

وإن كنتُ بدرا أذهب الجهلُ نورَه
ولم يُقصني ذنبي ولا سوءُ فعلتي
كما الجود والصَّفحُ الجميل مع الرضى
وقد ثبت الحمد الكريمُ لخالقي
فعمّا قريب يُنعم الله بالرِّدِّ
فإتيانُ سوءِ الذنب أليقُ بالعبدِ
لأليقُ شيءٌ في الوجود بذِي المجدِ
وقد ثبت الإيمانُ عندي، فيا سعدي!

فهذا يا وليي ما أمر الله وليَّك وصفيك أن يخاطبك به ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ
الْحَقَّ﴾ وحقُّ الله أحقُّ. واعلم أن هذه الرسالة من أعظم المنن عليك ومن أسنى تُحفه

إليك! والسلامُ الطيب المبارك على النبيِّ ورحمةُ الله وبركاته، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعليك ورحمة الله وبركاته.

وكذلك يُخصُّك بالسلام الأتم عبدُ الله بدر الحبشي وجميعُ إخواننا. وسلامي يتردّد على أبنائك وأصحابك وأوليائك: الشيخ المبارك السعيد بمخدمتك أبو عبد الله ابن المرباط والشيخ الموفق أبو عتيق والجار الصالح الحاج مُعافى وأبو محمد الحافظ والزكي المجتهد أبو القاسم القابسي والفقير الصادق القريح عبد الجبار والخديم المبارك الناصح عبد العزيز النابلي ووليِّي وصفيي الذي واخيتَ بيني وبينه أبو عبد الله القطان. وقد نعت إليكم محمد التائب رحمه الله تعالى، مات بين مكة والمدينة على مرحلة من مكة بين مرٍّ وعُسْفان، زائراً نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم شهيدا بين الحرّمين؛ يُحشر يوم القيامة آمنا.

وكتب إليكم وليُّكم بهذه الرسالة من مكة حرسها الله في شهر ربيع الأول سنة ستمائة، وطاف بها أسبوعاً وأمسها الحجر الأسود والمترّم والمستجار، وأدخلها البيت والمواضع الفاضلة تيمُّناً وتبرُّكاً. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وصفوة المرسلين، وعلى آله الطاهرين وأصحابه أجمعين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وجميع عباد الله الصالحين وسلم تسليماً.

نم نقل ومقابلة ومراجعة وتصحيح وتبويب هذه الرسالة الفدّة المباركة لهذا الإمام القدوة البركة

على يد المذنب العترف أضعف العباد وأحقّهم في نفسه وأفقرهم إلى رحمة ربّه

أبي حامد صخر به محمد الرهادي به محمد الأمير الناصري

بيارس في شهر شعبان سنة 1434هـ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام

على محمد

٢